الفصل الرابع عشر

منهج المستشرقين في قراءة مفردات من التاريخ الإسلامي

بين الرفض والإستجابة:- وقفة مع الإستشراق الأمريكي

حقيقة أن ردّ الفعل العربي الإسلامي على المواقف والتفسيرات الإستشراقية ولا سيما تلك المتعلقة بمبادىء الإسلام وسيرة الرسول الكريم يرجع إلى أربعينيات القرن العشرين سواء أكان في مصر أم في غيرها، كما أن أعضاء في المجامع العلمية في دمشق والقاهرة كانوا من المستشرقين البارزين؛ ألا أن عمر هذا الاهتمام في ميدان الإستشراق في البلدان العربية والإسلامية جديد ولم يتعدّ إلا بضعة عقود حينما آل ميدان المواجهة الفكرية إلى مرحلة السخونة التي كانت ترتبط ارتباطاً قوياً بالظروف والأحوال السياسية العالمية وبالعلاقات السياسية السلبية أو الإيجابية بين هذا البلد العربي أو ذاك أو بين البلدان العربية والإسلامية وبين العالم، أوربا أولاً ثم أمريكا ومن بعد ذلك أمريكا وأوربا سويّة. وعلى الرغم من أن روسيا وبعد ذلك الإتحاد السوفيتي قد أنجبا عدداً من المستشرقين اللامعين، وقد كان لبعضهم ولاسيما في مرحلة ما قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ مواقف سلبية وحاقدة من الإسلام والقرآن الكريم والنبي العظيم عليه الصلاة والسلام ولكن ردود الفعل من المؤرخين العرب والسلمين عليها كانت باهتة وضعيفة موازنة بسخونة ردود الأفعال ضدّ الإستشراق الأوربي والأمريكي. ولعل هذا يرجع بالأساس إلى السبب نفسه، فأوربا وأمريكا من زاوية النظر العربية والإسلامية دولتان تعملان بجهد إلى فرض نظرية الإستيلاء والمؤامرة وأخيراً العولمة السياسية والإقتصادية والثقافية.

ونقطة مهمة أخرى لا مندوحة من إثارتها في هذا الخصوص ألا وهي أن الإستشراق في أوربا، ولا سيما بين الأوساط العلمية الأوربية الوسطى، لم يعد موضوعاً فاعلاً وحيوياً كما كان في القرون السابقة، بل أصبح موضوعاً عتيقاً. إذ من المعلوم أن المؤتمرات الإستشراقية السنوية التي دأبت على الإنعقاد في باريس وغيرها من العواصم الأوربية قد بلغت أوجّهاً في سبعينيات القرن العشرين بعد أن حقّق المستشرقون حوالي مائة مؤتمر لمستشرقي العالم[1] وأوربا الشرقية والوسطى والغربية

(١) ينظر مجلة نيويورك Review book New York محلة ١٤/ ١٩٨٠، ناجي، د. عبد الجبار:

وأمريكا. وبعد أن اتّفقوا على أنهم قد حققوا بغيتهم في دراسة التاريخ الإسلامي والتراث العربي الإسلامي وفي تحقيق أمهات المخطوطات العربية والفارسية والتركية ودراستها، وفي تثبيت مدارس إستشراقية في ميادين وحقول معرفية مهمة في التراث العربي والإسلامي نظير: موقفهم من القرآن الكريم وترجمته إلى لغاتهم ومن الوحي الإلهي ومن سيرة النبي وحياته ومن الحديث النبوي الشريف والتفسير والفقه والشريعة والفتوحات الإسلامية ودراساتهم العلمية والحضارية والحضرية. ومن تحقيقهم المخطوطات العلمية والأدبية والفقهية والكلامية والفلسفية. بعد القيام بجميع هذه الجهود المضنية التي بحقّ تستحق كلّ تقدير وثناء؛ نهض الشرق، العرب والمسلمون، وشمّر العلماء عن سواعدهم لدراسة تلك الأعمال وترجمة الكثير منها أو إعادة تحقيق ما حقّقه المستشرقون متبعين مناهجهم إن لم يكونوا مقلدين لها. كذلك فإن العلماء العرب والمسلمين أخذوا على عاتقهم الردّ على ما أطلقوا عليه افتراءات وتخرّصات والتفسيرات للمستشرقين، وبما للمستشرقين وما عليهم ووصلت الحال في العراق مثلاً إلى وضع قوائم سوداء للمستشرقين والمسيئين وأخرى بيضاء للمستشرقين المعتدلين أو الإيجابيين. من هنا ظلّ موضوع الإستشراق حتى يومنا هذا متفاعلاً ومتحركاً بين أوساط المفكرين العرب والمسلمين. ولعله تحوّل إلى شمّاعة يعلّق عليه الكتّاب والمؤرخون عدم تفاعلهم وعزوفهم وفي أحيان قصورهم وهروبهم في متابعة أعمال المستشرقين ـ بعضهم فقط ـ الجديّة وفي تحقيق قراءة جديدة الرؤيا لمسيرة التاريخ. وقد أدّت هذه الوضعية إلى إعلان العديد من المفكرين والمؤرخين العرب الحداثويين ـ بعد تشخيصهم عناصر المعاناة والرتابة في المنهجية التاريخية العربية البحثية ـ إلى لزوم الأخذ بمناهج المستشرقين البحثية مع أنهم أخفّوا الإشارة إلى التعبير مباشرة واستبدلوه بتعبير أعم وهو ضرورة الأخذ بمناهج الحداثة والعقلانية في تفسير التاريخ ـ ولاسيما الوسيط منه ـ وقراءته. وبينما بدأت معركة الجدال والمناظرة في منتصف القرن العشرين بين المؤرخين والكتّاب العرب من جهة وبين المستشرقين من جهة أخرى فقد انتهت إلى جدال ومناظرة بين المثقفين العرب المؤيدين للحداثة

الاستشراق والسيرة النبوية مسلّمات بشأن تاريخ السيرة ومفارقات في تفسيرات المستشرقين (مجلة دراسات إسلامية) عدد ١/ ٢٠٠٠ ص ١٠٣-١٠٣؛ خصائص النص الاستشراقي في وضعية النزاع (ملاحظات أولية حول سجال برنارد لويس وادوارد سعيد، ترجمة وإعداد كابول يوسف حسين / مجلة الاستشراق / دار الشؤون الثقافية عدد / ٢/ شباط ١٩٨٧ ص ١١٦-١١٧.

والتغيير وبين نظرائهم من ذات الدين والقومية ممن التزاموا بمواقفهم وتوجّهاتهم المعادية للمستشرقين ومناهجهم وللحداثويين والعقلانيين. ففي رأيهم أن التاريخ المدّون والتاريخ المتعارف عليه صحيح ومتسّق وليس هناك من حاجة إلى إعادة قراءته. وفي رأيهم أن دعاوى مثل هذه إن هي إلا نتيجةٌ للتأثير الغربي والتأثير الإستشراقي[١].

وعلى الرغم من تضاؤل الاهتمام الأوربي بالإستشراق المعروف لكن هذا لا يعدم تماما تضاؤل اهتام أوربا بالشرق،وإن هذا الاهتمام قد تزايد وتضاعف مرّات. وفيما يتعلق بموضوعنا فإن ثمّة تحوّلات معاصرة قد أقحمت نفسها في تنشيط الاهتمام وإعادة الحياة ـ إن جاز التعبير ـ مرّة أخرى في العقلية الغربية للعودة ثانية والخوض في ميادين معرفية وتاريخية بشأن الشرق. ومن هذه التحوّلات والمتغيرات:-

١- نهوض الولايات[٢] المتحدة من دولة تسعى في البداية إلى التقوقع في قارتها الجديدة إلى دولة جامعة تسعى جاهدة إلى إقامة إمبراطورية عسكرية ـ سياسية ـ إقتصادية أسوّة بالإمبراطوريات التاريخية. ولهذا فقد عملت على فتح الأبواب لاستثمار العقول الأوربية النشيطة في ميادين العلم والمعرفة ومن بينها عقول المستشرقين. إذ تحفّز عدد منهم أمثال كروبناوم وكويتاين ولابيدوس وكريبر وبرنارد لويس وفري وغيرهم للعمل في الجامعات الأمريكية والمؤسسات البحثية والعلمية في واشنطن ونيويورك وهارفرد ونيو جرسي وغيرها. وعلى أثر ذلك ولد إستشراق جديد يتعامل بصورة رئيسة مع متطلبات العقلية الأمريكية. واللافت أنه استشراق لا يتعامل كليّة مع المفاصل التقليدية أي التاريخ الإسلامي في الماضي إنما مع الإسلام والمسلمين في هذا العصر، وعلينا الأخذ بنظر الإعتبار أن الإستشراق الأمريكي

---

(١) الموسوي، د. محسن جاسم: مداخل المثقفين العرب للأستشراق التآلف والأختلاف (الثلاثينيات) مجلة الاستشراق دار الشؤون الثقافية عدد ٥/ ١٩٩١ ص ١-١٤؛ هاشم صالح (إعداد وترجمة): الاستشراق بين دعاته ومعارضيه (طبعة أولى / ١٩٩٤) مقدمة المترجم ص ٥-٩؛ بحث المستشرق الإيطالي غبريللي: ثناء على الاستشرا ص ٢٥-٢٧؛ بحث البروفسور برنارد لويس: حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط، ص ١٣١-١٣٣؛ وبحثه الآخر: مسألة الاستشراق ص ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨-١٧٠.

(٢) العاني، د. عبد القهار: الاستشراق والدراسات الإسلامية (مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٣) ص ٥،٦،٧.

التقليدي بعد استقلال المستعمرات عام ١٧٨٣ كان مهتما بالمفاصل التاريخية الإسلامية في العصور الوسطى. فانبثق استشراق أمريكي ميدانه الأساس الإسلام المعاصر. كان دور هؤلاء المستشرقين كبيراً في تزويد العقلية الأمريكية بالجذور والأصول الجاهزة لجميع التطوّرات والعلاقات مع العالمين العربي والإسلامي تاريخياً وحضرياً.

٢- التوجه الملحوظ نحو الدراسات الإجتماعية الحضرية(١) في أمريكا، إذ ظهرت الحاجة ماسة إلى تعزيز علم الإجتماع الحضري لذا صار علماء الإجتماع هم المعوّل عليهم في بناء نظريات وأفكار عن الأحوال الحضرية وأحوال المدن في الشرق، وهذا التحول لم يكن سائداً وشائعاً في الإستشراق الأوربي عامة، حقيقة أن دراسات المدن الإسلامية قد وقف عليها المستشرقون الفرنسيون بشكل لافت(٢) ولا سيما دراسات المدن الشمال أفريقية، إلا أن نقطة الموازنة بينهما هي أن علماء الإجتماع الحضري في الولايات المتحدة وانطلاقاً من المتغيرات السريعة الإقتصادية والإجتماعية

---

(١) غران، بيتر، الاستشراق المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية (مجلة الاستشراق، عدد ٢/ ١٩٨٧) ص ٦٣-٦٥، ٦٧، ناجي، د.عبد الجبار: الاستشراق الأمريكي والمدنية الإسلامية (مجلة الاستشراق).

(٢) يعدّ واشنجتون آرفنج Irving من المستشرقين الأمريكان الروّاد إذ ألف كتاباً عنوانه The Life and letters of Washingon Irving (New York) 1862-1864, Irving Washington; The Life of Muhammed وقد ترجمه الدكتور علي حسين الخربوطلي إلى العربية تحت عنوان حياة محمد (دار المعارف مصر). وقد أعقب أرفنج عدداً من المستشرقين الأمريكان نظير جورج بوش George Bush الذي ألف كتاباً مختصراً بعنوان (حياة محمد) أختصر فيه كتاب المستشرق البريطاني الذي ألف عن الرسول كتاباً بعنوان .The True nature of imposture وألف جفري آرثر Jeffery Arthur كتاباً بعنوان تاريخ محمد History of Mohamet طبع عام ١٩٢٦، وكتاباً آخر بعنوان (نبي الإسلام The Prophet of MuslimÀ وألف كالفري ادوين Edwin, cavrley كتاباً عنوانه محمد (Mohamet) طبع سنة ١٩٣٦، وكتب ولفريد سمث Wilfred smith كتاباً بعنوان (عظمة محمد) The Greatness of Mohamet كما ألف كتاباً عن (الإسلام في التاريخ الحديث) و(الأحمدية) وطبع الأول عام ١٩٥٧.

وألف المستشرق برافمان Bravmann كتاباً بعنوان (محمد) Mohamet صدر سنة ١٩٧٥ (ينظر Daniel, N. Islam and the West (Edinburgh 1962) M. Bell: The Origins of Islam in its Christian environment (London 1926).

أربري، أ.ج. المستشرقون البريطانيون (ترجمة محمد الدسوقي لندن ١٩٤٦).

والثقافية وإلى حد ما الدينية التي نمت مع نمو المدن الأمريكية الحديثة التأسيس قد جدوا في إيجاد مقارنات ومسوغات تاريخية للمشاكل والصعوبات التي كانت المدن الأمريكية وما زالت تعانيها وتواجهها على أثر الانفلات الملحوظ في هجرة المهاجرين من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية(١) عندئذ ولد هذا التوجه بدراسة المدن العربية والإسلامية من الوجهة الحضرية والإجتماعية أكثر من الوجهة الطوبوغرافية المعروفة. فلم يجهد علماء الإجتماع الحضري أنفسهم في البحث التاريخي في المؤلفات التراثية الإسلامية القديمة بهدف اقتناص وجمع النصوص الأولية المؤيدة لهذه النظرية أو تلك إنما عمدوا إلى طريقة أسهل وأيسر بكثير ألا وهي الدراسات والفرضيات الجاهزة التي حققها المستشرقون الأوربيون على الرغم من أن بعضها ذات مواقف أحادية في التفسير. وبالفعل فقد سطع نجم عدد من هؤلاء الذين تخصّصوا بفلسفة وأيديولوجية المدينة الإسلامية وفلسفة نشوئها وتطورها وانحلالها(٢).

٣- وبموازنة سريعة بين العناصر المحرّكة للإستعمار القديم الذي كان يسعى باستمرار إلى تحفيز أناس متخصصين بتراث وتاريخ الشعوب الآسيوية والعربية الإسلامية، فإن المرحلة الجديدة وبعد انهيار الإتحاد السوفيتي وتفرّد الولايات المتحدة في سياسات العالم وانطلاق الصحوة الإسلامية ولاسيما بعد أحداث أيلول وما قبلها وما بعدها دعت ساسة الإستعمار الحديث إلى تحفيز وتشجيع المهتمين،

---

(١) ينظر:

Gideon, Sjoberg: The pre-Industrial cities, Past and Present (Texas 1960): "The rise and perspective" in International Journal of Comparative Sociology of Comparison in comparative Studies (California 1974). Benet,F. The Ideology of Islamic Urbanization" in International Journal of comparative sociology 1963,

ناجي، د. عبد الجبار: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية (بيروت ٢٠٠١).

(٢) ينظر ناجي، د.عبد الجبار: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (بغداد ١٩٨١)، ناجي: د. عبد الجبار: موقف الاستشراق الأمريكي من دراسة المدينة العربية الإسلامية (مجلة الاستشراق دار الشؤون الثقافية بغداد عدد ١/ ١٩٨٧ ص ١٣٣-١٣٩، ناجي؛ د. عبد الجبار: المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية (دراسة نقدية مقارنة) مجلة المورد / بغداد/ ١٩٨١، ص ١٣٦؛ حبي، د. يوسف (المترجم): الاستشراق الفرنسي، أصوله، تطوره، آفاقه للمستشرق روبير منتران (مجلة الاستشراق، بغداد، عدد ٢/ ١٩٨٧ ص ٣٢-٣٨).

وليس بالضرورة من المستشرقين، إلى تهيئة معرفة وموقف معرفي جاهز عن الإسلام، الدين الثاني في أوربا(١)، والوجه المعارض من العولمة الأمريكية. وكذلك عن المجتمع الإسلامي - عناصر توحّده وتماكسه أو عناصر تبعثره وتفكّكه - وكيفية الولوج إلى صياغة سياسات غرضها العمل على تفتيت هذه الوحدة والتماسك في بنائه العقيدي وبما أصبح يصطلح عليه منذ تسعينيات القرن العشرين ولحد الآن بمصطلح الصراع أو التصارع بين الحضارات، وواقعياً بين الأديان لا الحضارات وأكثر واقعية بين الإسلام من جهة وأمريكا وإسرائيل من جهة أخرى. ومع أنه من المبالغة بمكان تحديد ذلك حصراً بالمسيحية واليهودية أو من الجبهة المعارضة أي الإسلام والكونفوشية فإن المصطلح ينطوي على مجازفة؛ لأن أمريكا مثلاً لا تعادل المسيحية على وجه الإطلاق كما لا تتوازن وتتعادل مع إسرائيل مع اليهودية على وجه الإجمال.هذا التحوّل قدّم مسوغاً حيوياً لأن تنشط دوائر الدراسات الإستشراقية من جديد بما يتعلق الأمر بالإسلام والديانات الأخرى، وأن جرداً سريعاً بما صدر من كتب وأبحاث عن هذا الميدان وكذلك جرداً سريعاً في المؤتمرات والندوات العالمية والمحلية التي درات حول الحوار ضداً من الصراع بين الأديان توفر للباحث جواباً شافياً يبين انتعاش الدراسات الإستشراقية والإسلامية.

ومن المفارقات الملفتة للنظر في هذا التحول هو أن التأثيرات الإستشراقية تاريخياً قد بدأت من العصور الوسطى الأوربية - عصر الكنيسة - من مكوّن أساس قائم على الصراع بين الكنيسة ورؤيتها الضيقة عن الإسلام ومبادئه وعن رسول الأمة(٢). فكان

---

(١) ينظر ناجي: عبد الجبار "معايير ماكس ويبر في المدينة العربية الإسلامية نموذجاً" مجلة دراسات اجتماعية عدد ٢٠٠١/١٢ ص ٨٩- ١٠٦؛ ناجي، د. عبد الجبار: المدينة العربية الإسلامية والموقف من العوامل المناخية والصحية" في مجلة آفاق عربية (تشرين الأول ١٩٩٠) ص ١٠٦- ١١٣ ينظر:

Gideon Sjoberg: "Cities in developing and industrial societies" in the study of Urbanization, ed. By Hauser (New York 1966): idem pre - Industrial cities, p. 91-93.

(٢) ينظر:

Gideon, Sjoberg: The rise and fall of cities pp.107-119. Ashley, W.J. "The beginning of town life in the middle Ages" in the Quarterly Journal of Economies (1896) p. 402, George Scanlon, George: "Excavations at Fustat" in Journal of American Research center in Egypt (1964).

ناجي، د. عبد الجبار: موقف ابن خلدون من عوامل نشوء المدينة العربية الإسلامية وتطورها

من الواضح أن هناك صراعا دينيا قد انتهى في الوقت الراهن باستحواذ سياسات الدول الكبرى في أن تجعل الصراع وللمرة الثانية يستند ويتمركز على صراع ديني بين المسيحية الغربية واليهودية عامة وبين الإسلام(١) على الرغم من وقوف الهيآت الدينية العليا في كلا الجانبين موقفاً قاطعاً ومخالفا إزاء هذا التوجه. فالأديان لا تتصارع، إلا في حال وجود تأسيس عناصر البغض والتعصب الديني. فالمستشرق المعروف البروفسور برنارد لويس يضع النقاط على الحروف في رأيه القائل أن الدين الإسلامي يمثّل التهديد الأكثر خطورة على التراث المسيحي والتراث اليهودي.

حسب ما تقدم نريد القول بأن هناك عناصر في منهج البحث الإستشراقي بقيت مثار حوار وجدل وأحياناً مدار نرفزة واستياء من عدد غير قليل من الباحثين العرب ومن بعض الاكاديميين. فالإستشراق عند البعض بمثابة زندقة وشعوبية وكفر، والمنهج الإستشراقي بمثابة منهج استعماري هدفه تسييس تراث الأمة العربية والإسلامية والتشكيك فيه، وهدف المستشرقين أو أهدافهم ما زالت أهدافا تبشيرية عقيدية وإلى غير ذلك من المعادلات الحدّية القاطعة التي تثيرها عوامل من الحقد على الآخر المقابل وأحياناً المضاد والمعادي وهي تسعى إلى سدّ الأبواب بوجهه والإبتعاد عنه وربما الهروب منه والعزوف عن الأخذ بمبدأ الحوار معه.

هذه الأمور هي التي حفّزت على تناول هذا الموضوع. فالملاحظة الأساس المسبقة هي أن العناصر السلبية المشخّصة عن موقف الرافضين للمنهج البحثي الحداثوي والعقلاني هي في حقيقتها وجهات نظر في القراءة التاريخية قد تبلورت إلى:

(مجلة الحكمة، بغداد، عدد آيار /١٩٩٨/ ص ١٠٦؛ ناجي، د. عبد الجبار "المدينة العربية الإسلامية والعوامل المناخية ص ١٠٦-١٠٨).

(١) ينظر فوك، يوهان: تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين (ترجمة عمر لطفي العالم طبعة أولى ١٩٩٦)؛ الاستشراق بين دعاته ومعارضيه (ترجمة هاشم صالح) بحث البروفسور مكسيم رودنسن: "وضع الاستشراق المختص بالساميات، مكتسباته ومشاكله" ص ٨٥-٩٧؛ بحث البروفسور برنارد لويس: حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط ص ١٣١-١٥٣؛ أدريس، د. محمد جلاء: الاستشراق الإسرائيلي في الدراسات العبرية المعاصرة (طبعة أولى، القاهرة، ٢٠٠٣) ص ٧٧-١٠٧.

أ. حقد المستشرقين على الإسلام والقرآن والرسول الكريم.

ب. الفلسفة الشكّية التي جعلها المستشرقون لبنات أساس في بناء مواقفهم وتفسيراتهم من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والسيرة الشريفة للرسول الأعظم.

لقد حفّزتني ملاحظة ذكيّة للأستاذين غي تويليه وجان تولار في كتابهما (صناعة المؤرخ) المنشورة ترجمته عام ١٩٩٩[1] على الولوج في موضوع أحسبه ينطوي على أهمية فكرية في زمانِنا الذي أضحى فيه التمييز بين المؤرخ وغير المؤرخ ضبابياً إن لم يكن تراجعياً من جانب المؤرخين الأكاديميين كماً ونوعاً وتسابقاً واضحاً من جانب المهتمين وغير المؤرخين في البحث في قضايا تاريخية مهمة جداً وتخصّصية جداً. فالتاريخ كما يقول تويليه ليس سوى لعبة تتغير قواعدها ببطء شديد فاللاعبون البارعون فيها قلة، وهناك ـ مما شك فيه ـ لاعبون غير محظوظين وهناك لاعبون ساهون وتافهون ولاعبون حانقون.إنه تصنيف بارع والمؤلف لا يقلّل من أهمية التاريخ والكتابة التاريخية حتى للاعبين التافهين والحانقين وهذا يقف على الصفة المغايرة والمضادة لما طرحه نابليون بونابرت من وصف مؤذ للتاريخ بأنه History is a fable

---

(١) ينظر على سبيل المثال شيرين هنتر :Hunter

the united states (A comparative perspective (Eds.Shireen Hunter and Huma Malik (CSIS) 2003, The united states, Europe, and the Wider middle East (conference proceedings " rand center 2004", Islam, Europe's second religion: The new social, culture and political landscope (SCIS) 2002, Modernization and democratization of the Muslim World.

ندوة عقدها مركز (CSIS) في شهر مايس - تموز ٢٠٠٣، وقد قمت بدراستها وكتابة ردّ عليها. د.عبد الجبار ناجي في بحث عنوانه (هل الإسلام يتعارض مع الديمقراطية والحداثة: رؤية في التراث والمعاصرة) مجلة الحكمة عدد ٣٨/ ٢٠٠٥.

وحول نظرية التصارع والتصادم بين الحضارات والأديان ينظر، هنتغتن :-Huntington صراع الحضارات (وترجمه إلى العربية طلعت الشايب بعنوان (صدام الحضارات) (طبعة أولى، فرانسيس فوكوياما (ترجمة د. حسين الشيخ) الطبعة الأولى / بيروت ١٩٩٣)، كتاب البروفسور برنارد لويس (جذور غضب المسلم The Roots of Muslim Rage عام ٢٠٠٣) وأحدث نظرة لتموثي سافاج Timothy M. Savage وهي (الإسلام وأوربا).

Europe and Islam: (Rescent, Waxing culture clashing) (SCIS/2004).

agreed on[1] خرافة متفق عليها.

فالحديث عن منهج لأحد المدارس الإستشراقية في الكتابة عن موضوعات من تاريخنا العربي الإسلامي حصراً ألا وهو منهج المستشرقين الأمريكان له عدّة مسوغات، إذ استرعاني هذا المنهج من بين مناهج المستشرقين لا لأنه يعرض لنا محفّزات أنموذجية في ضرورة التقيد بها لتوجيه بحوثنا في التاريخ العربي الإسلامي وفي الدراسات الحضرية إنما لأنه أحدث أو لنقل آخر ما تبقى من رؤى وتفسيرات إستشراقية على إثر غياب أجيال المستشرقين الأوربيين والروس ومن ثم السوفيت الأول. تلك الأجيال التي أسهمت بشكل أو بآخر إسهاما فاعلاً سلباً كانت مواقفهم وتفسيراتهم أو إيجاباً في صياغة عقلية أوربية أو من تأثر بها، إنها جديرة بالاهتمام، كذلك ما أسهموا به في صناعة قواعد إعتقدوا - وربما كانوا على صواب - بأنها المناهج البحثية التي يشجعون الآخر على تفهّمها والمحاججة إن شاء الآخر في المحاججة بشأنها وفي هذه الملاحظة أعني ما هو مؤشر للآخر بالنسبة إلى المؤرخين العرب والمسلمين عموماً.

قلت إنه أحدث ما تبقى من مناهج إستشراقية وبهدف التلميح إلى أن من أشهر المستشرقين البريطانيين والألمان مثلاً قد تركوا دوائرهم البحثية في بلدانهم للإستقرار في أمريكا والتجنس بالجنسية الأمريكية ونقل مدارات بحوثهم ومتابعة دراساتهم فيها وهم يخضعون إلى مؤثرات جديدة في المناخ الفكري والسياسي والإقتصادي الجديد أو ربما بهدف تحقيق الحوافز الدافعة للمؤرخ عامّة والمستشرق بشكل خاص ومن بينها حافز الطموح الذي لا يقتصر على الجانب المادي بقدر تأثره بحافز الإقدام والتجديد ومكافحة الرتابة، رتابة الكتابة التاريخية، كما شخص ذلك جان تولار. فالمؤرخ طموح لنفسه وفي الوقت نفسه، طموح للتاريخ الذي يمكن تحديده بمجد التاريخ العظيم golden ages الذي نخضع له في بحوثنا شئنا أم أبينا. ومن أمثال هؤلاء المستشرقين الأوربيين عقلاً وتوجهاً (كرونبارم وجب) وفيليب حتي (إذا ما اتفقنا على أنه مستشرق مع أنه لبناني وهاجر الى أمريكا وتجنّس بالجنسية الأمريكية) وساذرون وبرنارد لويس وكويتاين وكريبر ولابيدوس وغيرهم. وعلى سبيل المثال فإن المستشرق

(١) ينظر:

Gabriell, F: Muhammad and the conquest of Islam (Tran, Lulling and linel) (London 1968) p. 19, watt W.Montegomery, Muhammad Prophet and Statesman (oxford 1969) pp. 242-45.

البريطاني الجنسية اليهودي الأصل برنارد لويس قد حقّق شهرة واسعة وسمعة عالية وعالمية عندما كان في بريطانيا وقد عمل مستشاراً لوزارة الخارجية في الشؤون العربية؛ إلا أن مكانته بعد انتقاله إلى أمريكا صارت أوسع بكثير ولاسيما في تنوع دراساته الأكاديمية التركية الحديثة ودراسات الإسلام المعاصر. ثم إنه صار مصدراً في صنع قرار إستشراقي وفكري في المتغيرات التي صنعتها العولمة ونظرية صراع الحضارات وأحداث ١١ أيلول. ففي أحدث دراسة له وهي دراسة يبدو أنها أسهمت في التحليل التاريخي للإسلام وعنوانها (جذور غضب المسلم) The roots of the Muslim Rage(١) عرض فيها دعماً تاريخياً لتوقع صدام إسلامي ـ غربي. وبرأيه أن هذا الصدام قد لا يكون منطقياً أو عقلانياً لكن بالتأكيد له امتدادت تاريخية كردّ فعل للمنافسة التاريخية القديمة بين المسلمين والأديان القائمة آنذاك إذ يقول إنه ردّ فعل ضد تراثنا اليهودي والنصراني، وإنه ردّ فعل ضدّ حاضرنا العلماني وضدّ التوسع في انتشار كليهما. ألا ترون أنه عنصر من عناصر حافز الطموح لدى لويس إذ وجد في التربة الأمريكية الصدى والإغراء؟

هناك تساؤل عن الدافع لهذا البحث المتواضع فهل هناك خطوط متميّزة أو مميّزة بين منهج أو مناهج بحث المستشرقين وبين منهجنا البحثي ـ وهنا أقصد منهج الباحثين المؤرخين لا المتكئين على مناهجنا؟ إنه سؤال يحمل في بنيته تناقضاً ذاتياً. فالمؤرخون الغربيون منذ عصر النهضة الأوربية قد تأثروا إيجابياً بالتوصيفة التي أعدها ديكارت ضدّ(٢) علمية التاريخ وإنه مجرد ذاكرة وإنه غير مؤتمن وإن مصداقيته معدومة إذا ظلّ محدّدا بحدود الذاكرة، أو إذا لم يتّبع المؤرخ منهجاً إستقرائياً بديلاً عن منهجه الإطوائي وهو المنهج الاستردادي الذي كان مخيّماً على العقلية التاريخية الأوربية كما هو مخيّم على عقلية الكثير من باحثينا من الجيل الجديد. فضلا عن ذلك فإن منهج البحث العلمي البيكوني هو الآخر قد زوّد الساحة الفكرية الأوربية بأدوات رائعة في إثارة عناصر الشك والمقارنة والاعتماد على العلوم الأخرى السائدة المادية منها أو التجريبية أو الإستدلالية وفي ترتيب الأفكار قبل التسرع في تدوينها وإنتاجها.

وهكذا فقد أفلح المستشرقون باعتماد هذه المعايير لدراسة وتقييم الموضوعات

---

(١) ينظر رأي البروفسور برنارد لويس (جذور غضب المسلم ص ١٥).

(٢) صناعة المؤرخ (١٩٩٩) ص ١٥.

بهدف الوصول إلى تفسيرات وتحليلات قد يجدها البعض (وهم كثر) بأنها باطلة ومزيفة جملة وتفصيلاً؛ أو بخلاف ذلك قد يعجب بها البعض الآخر ويأخذ بها ويؤيدها أوربما يكون البعض الثالث جريئاً للمناداة في اعتمادها وتقليدها كما أعلن المؤرخ العربي الأصل الفرنسي فكراً ومنهجاً محمد أرغون بجرأة في كتابه (الإسلام، أوربا، الغرب) إذ يقول: ((من منّا لا يشعر اليوم بالضرورة القصوى لاستخدام كلّ مناهج العلوم الإجتماعية... قلت الحاجة القصوى للتفكير الجدّي أو العلمي وليس الإكتفاء بتلك الخطابات الأيديولوجية التي تهيمن علينا الآن بشكل مطلق تقريباً. ينبغي أن ننظر إليها ـ أي المناهج ـ من خلال منظورات لم تعرف من قبل وذلك لكي نقدّم صورة أخرى غير الصورة السائدة عن الإسلام والغرب))[1]. والإعلان الجريء الآخر الذي ينطوي على تشاؤمية حادّة ما أثاره الدكتور هشام جعيط التونسي المتأثر كثيراً بالمنهج الغربي الفرنسي عامة والمنهج الجدلي بشكل أخص إذ يقول في كتابه (أزمة الثقافة الإسلامية) إنه: ((لا يمكن أبداً للعرب والمسلمين أن يلجوا باب الحداثة والمشاركة في العالم المعاصر إلا إذا كوّنوا لأنفسهم طموحاً عالياً في مجالات الفكر والمعرفة والعلم والفن والأدب وقرّروا بصفة جدّية الأخذ عن الغير وما أبدعته الحداثة)). في كل هذه الميادين ووصولاً إلى ذلك يدعو جعيط إلى أنه وبعد انهيار العالم الشيوعي وتغيّر المعطيات صار ضرورياً للوعي العربي والإسلامي أن يطوّر منهج بحثه اعتماداً على:-

١- الدخول في تركيبة سلم داخلية وخارجية.

٢- استبعاد الأوهام.

٣- تطبيق مفاهيم الديمقراطية.

والأكثر أهمية قوله الآتي: ((كم من مرّة الآن أشتهي أن أقرأ للكتّاب العرب من المفكرين فلا أجد زاداً كبيراً مما يمنح تفتّح الذهن وإثراء المعرفة ومتعة المطالعة))[2]

---

(١) م.ن.

(٢) ينظر:

E.Gibbon: The decline and fall of the Roman Empire (London 1890) vol.2 (1887) p.577.

د. نوري جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته (بغداد ١٩٥٥) ص ٣٧.

(انتهى رأي الدكتور جعيط). وأودّ المداخلة معه لأقول هذا حقاً هو الذي يمثّل واقع الكتابة التاريخية، ومردّ ذلك يرجع إلى الفقر المدقع في منهجنا البحثي الاستردادي المثقل بعبء النص المرجعي التاريخي الحرفي وباستمرارية تبعيتنا إلى هذا النصّ بما يمكن التعبير عنه بالنصّ المقدّس الذي صاغ نفسية متردّدة بإلقاء التبعية على المؤرخ الطبري والمسعودي وابن الاثير بتعبير قال الطبري:- ثم تنحصر مهمتنا بفتح قوسيّ اقتباس ـ إن كنّا أمناء في النقل والإقتباس ـ أو بعدم فتحها إن أردنا السلخ والسطو وهو أمر أخذ يغلب على الكتابات الحديثة؛ تلك التي وصفها البروفسور جعيط.

فمما ذكره مونتغمري وات في كتابه بالإنجليزية (محمد النبي ورجل الدولة) أن المؤرخين المسلمين (يستخدم تعبير Muslim للعرب والمسلمن) يزعمون Claim أن محمداً أنموذجاً في الأخلاق والسلوك للإنسانية جمعاء غير أنهم فشلوا لحدّ الآن (الستينيات) في عرضهم هذا[1] وهذا هو التفسير الإستشراقي الأمريكي نفسه عند واشنجتون أرفنج. ثم أردف البروفسور وات قوله هذا المنطلق من منهجية إستشراقية هادفة لا يعتمد الاسترداد قائلا: ((ما زال المجال مفتوحاً أمام المؤرخين المسلمين ليقدّموا عرضاً أفضل لقضيتهم (أي القضية التي يسلّط المستشرقون الضوء عليها للدراسة وهي حياة الرسول العظيم فهل بإمكانهم ـ حسب رأي وات –Sift– يستخدمها بمعنى غربلة او نخل ـ العام عن الخاص في حياة محمد بهدف أكتشاف المعايير الأخلاقية التي تسهم إسهاما متحركاً في أوضاع العالم اليوم))[2]. ويخيل إن هذا التساؤل وغيره من تساؤلات المستشرقين البريطانيين والفرنسيين والألمان قد بدأت تأخذ صداها في العقلية العربية المعاصرة بما نسميه الآن (الحداثة).

والنقيض الذي أشرت إليه آنفاً هو الغرابة بأن هذه النظرة الإيجابية بالنسبة إلى منهج بحث المستشرقين من قبل أرغون وجيعط والجابري وحسن حنفي والتشاؤمية إزاء

Johnson, H: Teaching of History (New York 1947) pp. 10-12.

كولنجوود، ر.ج. فكرة التاريخ (طبعة ثانية، بؤس التاريخية (ترجمة سامر عبد الجبار المطلبي) (طبعة اولاً / بغداد/ ١٩٨٨).

(١) ينظر:

Bernard Lewis: "The roots of Muslim rage" in the Atlantic/sept 1990.

(٢) ينظر كولنجوود: فكرة التاريخ ص ١٢٣-١٢٥.

مناهج بحث المفكرين العرب والمسلمين لم تكن كذلك في تراثنا وماضينا. فالمعروف أن علماء المسلمين الأوائل هم الذين اعتمدوا الدربة ومنهج البحث الإستقرائي والمنهج العلمي والركون إلى الشك والتجريح للرواية وراويها ومقارنتها، قبل مئات السنين من عرض بيكون وديكارت وغيرهما. فالطبري يذكر في مقدمته دليلاً على الأمانة العلمية وعلى المصداقية في نقل المعلومات وعلى التجرّد من التحزّب والتشيّع لرواية دون أخرى بقوله ما نصّه: ((ما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل إنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليلعم إنه لم يؤتّ في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أديّ إلينا)). ولنقتبس قول المقدسي البشاري معقّباً على المؤلفات البلدانية التي قرأها فيقول: ((فهذا ما وقع إلينا من المصنّفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب. وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطّروه ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم. مع إنه لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أو دوّخ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة))[1].

وللمسعودي ملاحظة نقدية رائعة أثارها بشأن الكتابات الشائعة في عصره فيقول: ((ولم نذكر كتب التواريخ والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنّفوها وعرف مؤلفوها، فإنّا وجدنا مصنفي الكتب في ذلك مجيداً ومقصراً ومسهباً ومختصراً. ووجدنا الأخبار زائدة على زيادة الأيام، حادثة على حدوث الأزمان، وربما غالب البارع منها على الفطن الذكي، ولكل واحد قسط يخصّه بمقدار عنايته))[2].

وما أن يأتي عصر ابن خلدون والمقريزي والكافيجي والسخاوي حتى نشهد ثورة على منهجية الاسترداد والرتابة بما عبّر عنها ابن خلدون واصفاً حال العلوم النقلية في زمانه قائلا: ((لقد نفقت أوراقها في هذه الملّة بما لا مزيد عليه، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها غاية وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأنها لم تكن

---

(١) الإسلام، أوربا، الغرب ترجمة هاشم صالح (طبعة اولى / بيروت ١٩٩٥) ص ٥.

(٢) أزمة الثقافة الإسلامية (طبعة أولى/ بيروت ٢٠٠٠) ص ١٦، ١٧، وللمؤلف أيضاً كتاب (في السيرة النبوية، الوحي) والقرآن، والنبوة، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠٠) الفصل الخاص قوة النبي ص ١٠١-١٠٧.

وكسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب))[١]. فكأن هؤلاء قد شيّدوا مدرسة بحث تاريخية مؤسّسة على النقد والتشكيك والمقارنة والإستعانة بالعلوم وترسيخ المنهج الإستقرائي في البحث متفعين من المناهج الجدلية والإستدلالية والحضرية.

فالإستشراق الأمريكي ـ كما مرّ ـ حديث التكوين لحداثة العقلية الأمريكية ـ عن التاريخ العربي ـ وأول مستشرق عني بالموضوعات التاريخية الإسلامية واشنجتون أرفنج مصنف كتاب حياة محمد The life of Muhammad[٢] الذي ألّفه في حوالي متنصف القرن التاسع عشر الميلادي. وأرفنج ـ وهذا هو المهم ـ لم يكن أصلاً من أمريكا إنما كان من أبوين مهاجرين من بريطانيا وعلى وجه التحديد من إسكتلنده. والمعروف عند أهل الخبرة بمدرسة الإستشراق البريطانية أن إسكتلنده قد خرّجت عدداً من المستشرقين الذين بدأوا حياتهم وعلاقتهم بالتاريخ العربي الإسلامي بدراسات خاصة بحياة رسول الله والسيرة النبوية الشريفة ويقف على رأسهم السير وليم موير Muir مؤلف كتاب The life of Muhammad (from original sources)[٣] وظهرت أول طبعة له عام ١٨٦١ وثانيها عام ١٨٦٧ وثالثها عام ١٨٩٤ وأملك نسخة طبعتها عام ١٩٢٣. ثم المستشرق الثاني توماس كارليل الذي ألّف كتاباً عنوانه On the heroes and heroworship الأبطال وعبادة البطل[٤]. وقد نشر أولاً سنة ١٨٤٠ وترجم إلى اللغة العربية. والثالث مونتغمري وات Watt الذي صنّف أولاً كتابه المشهور Muhammad at Mecca نشر أولاً عام ١٩٥٣م. والمستشرقون الثلاثة قد نهجوا منهجاً بحثياً مختلفاً عن مدرسة لندن الإستشراقية بشأن السيرة النبوية وحياة الرسول وقد طرحت تعليلاً متواضعاً في كتابي عن الإستشراق حول توجّه المدرسة الأسكتلندية إزاء هذا الميدان. وفضلا عن أن أرفنج كان أسكتلندياً في الأصل فإن جذوره الثقافية لا علاقة لها بالتاريخ الإسلامي فقد بدأ حياته محامياً مع إنه ترك المهنة وارتحل إلى أوربا. ولعله

(١) ينظر:

Watt.Muhammad, Prophet and Statesman, p. 232, 235.

(2) Ibid., p. 235.

(٣) الطبري محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر) ج١ ص٨.

(٤) المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٥.

تأثر بكتاب موير ولكن المؤثر الواضح في توجهه كان المستشرق الألماني اليهودي غوستاف فيل Weil الذي يعدّ مستشرقاً رائداً في الكتابة عن الرسول الكريم في كتابه (حياة محمد) Geschechte der leben das Muhammad[(١)] وهو في أربعة أجزاء ظهرت بين عامي ١٨٥٨-١٨٦١.

ويعدّ أكثر ترجمات حياة الرسول شمولاً باللغة الإنجليزية والألمانية. أما المؤثر الآخر وهو المهم فكان المستشرق المبشر همفري بريدو مؤلف الكتاب عن سيرة رسول الله. وهذا الكتاب يحمل عنوانا متعصبا هو The true nature of imposter fully displayed in the life of Mahomet ويما أن بناء المدرسة الإستشراقية الأمريكية حديث التكوين فقد خضع للمؤثرات الأوربية، وأوربا الوسطى على وجه التحديد فتميز بعدة منعطفات أعرضها بالنقاط الآتية لكي لا أسهب فيها في البحث:

١- وضوح التأثير الأوربي في منهج بحث المستشرقين الذين يمكن تعريفهم بالأمريكان وأقصد بالتأثير هنا التأثير الفكري والثقافي في التوجّهات والتفسيرات والرؤى فأرفنج مثلاً كان شغله الشاغل في كتابه المذكر آنفا زوجات الرسول ونجد أحياناً ـ كما هو الحال عند كرونباوم ـ في تفسيراته عن ظهور الإسلام واتجاهاته الحضرية في كتاباته عن المدينة الإسلامية.

٢- الولادة الحديثة للمدينة الأمريكية ونموّها السريع الفوضوي والمستند الى الأحياء (الكيتو) والتناشز الإجتماعي والإقتصادي والإثني قد أوجد خلفية للمستشرقين المتخصّصين في ميدان المدن الإسلامية والموضوعات الإقتصادية. هنا لابد من الإشارة إلى دراسات كرونباوم وكويتاين اللذين استثمرا الوثائق ومنها وثائق الجنيزا اليهودية استثماراً واسعاً وكريبر الذي اختص بالمدن العراقية القديمة ولاسنر ولوكغارد Lokggaard مؤلف كتاب Islamic Taxations[(٢)]. ويتوضح منهج الدراسات الحضرية بالتركّيز على الجوانب الخططية والعمرانية في إسهامات يعقوب لاسنر عن بغداد المدورة وقصور الخلفاء العباسيين. وتشارلز آدمز عن المتغيرات الحضرية في

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة) ج١ ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون، المقدمة (بيروت) ص ٥، ٤٣٦.

وادي ديالي[1].

٣- كما أفرزت الحداثة في تأسيس أمريكا أن يتوجه المستشرقون الأمريكان إلى اعتماد الأفكار الجاهزة أو لنقل التفسيرات الجاهزة التي توصّلت إليها المدارس الإستشراقية الأوربية والروسية والسوفيتية ولاسيما تأثيرات بليبايف في دراسة المجتمع العربي الإسلامي على وفق نظرية الصراع الطبقي.

٤- وهناك تطور مهم ينبغي الاهتمام به ألا وهو دور علماء الإجتماع الحضري في الدراسات الإستشراقية إذ استثمروا الفرصة بأخذ مبادرات المؤرخين للنهوض بالدراسات الحضرية المقارنة التي لم تكن حتى ذلك الوقت تثير اهتمامات المؤرخين المستشرقين على الرغم من معالجاتهم الهامشية لها ـ كنظرية أصل المدينة وأصل الأصناف والنقابات الإسلامية ـ فسعّوا بجديّة إلى تقديم دراسات أيديولوجية عن التمدن الإسلامي مستثمرين نظرية ابن خلدون وخصائص ماكس ويبر الخمسة في نشوء المدن.

٥- والمستشرقون الأمريكان لم يشغلوا أنفسهم كثيراً بموضوعات السيرة النبوية إنما سعوا إلى سحب التراث إلى المعاصرة، ولا سيما في دراساتهم عن المدينة الإسلامية إذ شدّد علماء الإجتماع الحضري على المشاكل التي تواجهها الآن المدينة الأمريكية ومدى تطبيقها أو محاولة تطبيقها على المدينة الإسلامية نظير مشكلة عدد السكان، والزحمة في المدن، والتلوث البيئي، والنظافة أو عدمها والتوزيع القبلي بمعنى أحياء المدينة الإسلامية ومحلاتها موزعة قبلياً، والمواصلات ومجاري المياه، ومدى شح المياه أو توفرها.

٦- والإتجاه المهم الآخر الذي انشغل به منهج بحث المستشرقين الأمريكان هو الإسلام المعاصر ولاسيما بعد ثورة النفط. فالمستشرقون حتى هذه اللحظة يجدّون في البحث والتأليف عن هذه الموضوعات (الإسلام المعاصر، الحركات الإسلامية

---

(١) ينظر:

See Irving, W.: Life of Muhamet (New York 1944)

وعن حياة آرفنج في أمريكا تنظر:

Irving, Pierre, M.: The life and letters of Washington Irving (New York 1862-1864) p. 14-15, (Irving) in E.B. vol. 12, p. 691.

المعاصرة، النظرية الإسلامية السياسية) أو إلى عقد الندوات والسيمنارات عن الإسلام والديمقراطية أو الإسلام والعصرنة وما الى ذلك.

أنموذج في علم الإجتماع الحضري
ابن خلدون والمدينة العربية الإسلامية

عندما ينوي الباحث في التاريخ دراسة وبحث المؤلف النادر الذي صنفه العالم العربي المسلم الذائع الصيت ابن خلدون، ألا وهو المقدمة يسيطر عليه وهم أن هذه المقدمة تعد مصدراً تاريخياً شأنها شأن بقية المصادر التاريخية التي تزوده بنماذج من الأحداث التي يهتم بها غير أنه سيجد نفسه في كل صفحة من صفحات المقدّمة يتنقل وسط معارف إنسانيته متنوعة. ولا نغالي إذا ما قلنا إن مقدمة (تاريخ العبر) هي ليست تاريخاً بالمعنى الذي يهدف إليه باحث التاريخ؛ إنها دائرة معارف هادفة ومركزة. والأحرى وصفها بدائرة معارف في فلسفة العلوم الإنسانية لا مقدمة تاريخية فحسب فيها قدر حيوي عن علم الإجتماع ومعلومات غير قليلة عن الإقتصاد واقتصاد المدينة وقدر من الجغرافية البشرية والجغرافية السياسية وموضوعات عدة عن فن الإدارة والنظم الإسلامية، إنها عصارة فكرية مكثفة لمجمل الحضارة العربية الإسلامية أثرت كثيراً في الحياة الفكرية العربية المعاصرة لابن خلدون والمتأخرة عنه.

لقد وجّه اهتمامي في البحث عن موقف ابن خلدون ـ إن كان له موقف واضح حقاً ـ من فلسفة نشوء المدينة الإسلامية رأي طريف ورد في مؤلف لعدد من علماء الإجتماع الأمريكيين امثال سوركين Sorokin وزيمرمان وجارلس كالبين. ويبحث كتاب هؤلاء العلماء في مصدر متطوّر عن علم الإجتماع الريفي، والرأي الذي ورد فيه يجعل من ابن خلدون (في القرن الرابع عشر للميلاد) مؤسساً ورائداً لعلم الإجتماع الحضري ـ الريفي The Founder of rural- urban Sociology[1].

والملاحظ أن هذا الإستنتاج قد أثار حفيظة عدد من علماء الإجتماع الآخرين الذين ربما لا يرغبون في نسبة نظرية إجتماعية متطوّرة وفي علم الإجتماع الريفي الحضري إلى عالم اجتماع عربي مسلم. فالأوفق ـ كما يرى هؤلاء الباحثون ـ أن

---

(١) ينظر:

See William Muir: The life of Mohammad (London 1923).

يكتب رائد ومؤسس هذا العلم عالم أوربي. كان عالم الإجتماع جيديون سجوبيرج Gideon Sjoberg الذي عني بشكل واضح بدراسة المدينة وألف كتاباً شاملاً هو (مدن ما قبل حركة التصنيع)[١] وعدداً من البحوث حول هذا الميدان من بينها بحثه (ظهور وسقوط المدن) وبحثه (أيديولوجية التمدن أو الحياة الحضرية، الإسلامية)[٢] من أولئك الذين دافعوا عن عدم ريادة ابن خلدون في ذلك الحقل مؤكداً في كتابه (المدينة قبل حركة التصنيع) أن ابن خلدون لا يعد مؤسساً لهذا العلم، وأن الريادة في حقيقة الأمر تنسب إلى العالم الإيطالي (جيوفاني بوتيرو Giovanni Botero) من علماء القرن السادس عشر للميلاد[٣].

والأمر الذي ينبغي علينا معرفته أن هذا العالم جيوفاني بوتيرو قد ألّف كتاباً قيّماً أطلق عليه (عظمة المدن The Greatness of Cities) ضمنه حديثاً عن أسباب قوة المدن وتطورها واضمحلالها في كل من أوربا وشمال أفريقيا.وآسيا.

والحق يقال في هذا الصدد إن الأستاذ جيدون سجوبيرج في بحثه عن نشوء وسقوط المدن قد خفّف من موقفه حينما أشار إلى أن مشكلة ظهور المدن وسقوطها في التاريخ بصورة عامة هو موضوع سبق أن عالجه ووقف عليه منظرون اجتماعيون قديرون نظير ابن خلدون في القرن الرابع عشر وجيوفاني بوتيرو الذي جاء بعد ابن خلدون بحوالي قرنين من الزمان.

وبيّن أن كليهما قد شدّد على أن العامل السياسي هو العامل الحاسم وراء تبدلات أحوال المدن في العالم.

---

(١) كارليل، توماس: الأبطال وعبادة الأبطال ترجمة محمد السباعي إلى كتاب (الأبطال)، دار الكتاب العربي.

(2) Weil, Gustav: Geschechte der leben das Mohammad (1912).

(٣) ناجي، د. عبد الجبار، موقف الاستشراق الأمريكي من المدينة العربية الإسلامية (مجلة الاستشراق) عدد ١ ص١٣٤، مازن مطيقاني (ترجمة) لجنة الدراسات الاستشراقية (تحليل نقدي للدراسات الإسلامية في جامعات أمريكا الشمالية، ليبيا ١٩٧٥، ص ٤، ٢٥. جعيط د. هشام: أوربا والإسلام (باريس ١٩٧٨) ص ٢١، زهو، أحمد: الاستشراق الأمريكي والسيرة (أطروحة ماجستير غير منشورة) ص ٦-٧.

نخلص من هذه المقابلة بين وجهات نظر بعض علماء الإجتماع الغربيين بشأن مسألة جوهرية يحاول هذا البحث المتواضع التطرق إليها؛ لأن هذه المسألة تمثل انعطافاً في النظر إلى مقدمة ابن خلدون وفي إظهار أهمية الآراء التي قدمها هذا العالم العربي المسلم بوصفه رائداً لعلم الإجتماع الحضري ومنظراً لفلسفة نشوء المدن وتطورها واضمحلالها. وهدف هذا البحث إضافة هذا البعد العلمي ـ الذي يتضمن كثيراً من المعاصرة إذ إنه صار مصدراً أساساً لعلماء الإجتماع ـ إلى بقية الأبعاد العلمية والميادين الأخرى التي شخصت بالفعل حتى الآن من قبل الباحثين عن مكانة وقيمة هذا السفر الضخم. والواقع أن الباحثين عن ابن خلدون وجدوا إنه لابدّ من التعريف برؤية ابن خلدون لعلم الإجتماع الحضري. فالأستاذ محسن مهدي[1] مثلاً خصّص مجالاً رحباً من أطروحته، التي عنيت بموضوع فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، عن تفسيرات هذا العالم بشأن المدينة الإسلامية وعوامل ظهورها وتقدمها وانحلالها. وكذلك عن موقف ابن خلدون من مستلزمات إتخاذ المدن وشروط اختيارها والتبدلات الإجتماعية والإقتصادية في المدينة الإسلامية معتمداً في كل ذلك العرض على ما ذكره ابن خلدون في المقدمة، فضلاً عن ما كرّره ساطع الحصري في دراساته الشاملة عن هذا العالم من أقوال تتعلق بالمدن والأمصار. فرتب المعلومات الواردة في المقدمة إلى حقول منها حقل (اختطاط المدن) وحقل (ازدهار المدن وتدهورها).

يذكر الأستاذ جيدون سجوبيرج[2] في بحثه المذكور آنفا عن نشوء المدن أن توسع الحياة في المدينة ـ بضمنها الحياة السياسية والإقتصادية والحضرية ـ وتقلّصها يعدان السمة المركزية للمتغيرات الإجتماعية التي تحدث في المجتمعات المتحضرة. ويلوح لي أن هذا العالم الإجتماعي قد تأثر في هذا بما أبداه ابن خلدون في مقدمته من موضوعات طريفة حول العلاقة بين المدينة والحضارة ففي الفصل الأول من الكتاب يخصّص ابن خلدون الحديث عن المدن بعنوان (في البلدان والأمصار)[3] ويختار

---

(1) Pitirim A Sorokin, Carl Zimmerman and Charle Galpin: A Systematic source book in Rural sociology. (University of Minnesota Press/ 1930) p. 54.

(2) Gideon Sjobeg: the pre- Industrial city: past and present Texas 1969 F p. 3.

(3) Giovanni Botero = The Greatness of cities (Translated by Robert Person 1996 in Giovanni. The Reason of State and the Greatness of cities/ London 1950).

عنواناً ذكياً للفصل الأول من هذا الباب يظهر فيه متانة العلاقة بين الدولة والحضارة والمدينة، وعنوان الفصل هو:

[في أن الدولة أقدم من المدن والأمصار وإنها إنما توجد ثانية عن الملك][1]

ولم يكتف بذلك إنما قدم شرحاً وافياً لما قدمه في عنوان الفصل فيصّور أن تفسير هذه العلاقة هو [إن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة، فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا الخصوص]. وهنا فإن رأي ابن خلدون واضح لا يشوبه غموض في أن المدينة هي العنصر الأساس في التطور الحضاري. وضمن هذا المحور أيضاً يدلي ابن خلدون برأي آخر له علاقة وثيقة بما سبق ذكره إذ يقول: ((إعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه))[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن تفسير ابن خلدون للمدينة وجعلها تعادل الحضارة كان تفسيراً واضحاً ومفهوماً عند العلماء العرب في عصور سبقت عصر ابن خلدون بأجيال، فالمدينة عند عدد من اللغويين العرب تفسّر بالمُلك (بضم الميم) والحاضرة وهو تعبير مرادف للمدينة يقصد بها المدن والقرى والريف، ومصدرها الحضارة تعني الإقامة في الحاضرة والحضر.

عودة إلى ما سبق طرحه في الصفحات السابقة فإن من ينعم النظر في عنوان بحث الأستاذ سجوبيرج (ظهور وسقوط المدن)[3] يصل إلى مفهوم ربما كان صاحب البحث يهدف إليه أن يوحي إلى أن هناك تطوراً تعاقبياً لنشوء المدن وتطورها وسقوطها، وبشكل أوضح فإن سجوبيرج ومن بعده محسن مهدي يشددان على أن ظهور هذه المدينة أو تلك ونموها وبعدئذ سقوطها نتج عنه فعل عامل واحد أو مجموعة من العوامل، والأكثر صواباً إنهما يميلان إلى جعل ابن خلدون من أنصار العامل الواحد في تفسيراته لهذه الظاهرة، وقد استشهد سجوبيرج أيضاً بالعالم الإيطالي جيوفاني

(1) GideonSjoberg: "The rise and fall of cities" in International Journal of comparative sociology (1963) VOL.4, P.107.

(2) Muhsin Mahdi: Ibn Khalduns' Philosopgy of History (London 1957).

(٣) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدن (طبعة موسعة / مطبعة السعادة ١٩٦١) ص ٥٢٣-٥٣١.

بوتيرو سوية مع ابن خلدون وإنه هو الآخر يعد من أنصار العامل الواحد في تفسير ظهور المدن وسقوطها ألا وهو العامل السياسي. والواقع ان تفسيرات ابن خلدون وجيوفاني بخصوص آثار العامل السياسي ودوره في عملية ظهور المدينة وسقوطها قد أثرت في عدد من دراسات الباحثين في التحضر من أمثال بيرت هوزيلتز Hoselitz في بحثه[1] بشأن دور المدن في النمو الإقتصادي، وقد طبّق فيه هذا التفسير عند إشارته إلى بعض مدن شمال أفريقيا معتمداً صراحة على ابن خلدون.

وأثرت تلك التفسيرات أيضاً في دراسة كلارك حول (دول ـ مدن العصور الوسطى)[٢]. إذ نهج كلارك في بحثه تقسيم المدن الوسيطة على ثلاث مجاميع، المجموعة الأولى وتشمل المدن التي اتخذت في مواضع رومانية إذ ظهر فيها دور العامل السياسي، ومجموعة المدن التي ظهرت ونمت لظروف إجتماعية ـ إقتصادية خلال تلك العصور وهي بدورها اعتمدت العامل السياسي في استمرار بقائها؛ لأنها لم تتمكن من الصمود إلا بالاعتماد على حماية الامبراطور أو الامير المحلي، والمجموعة الثالثة من المدن هي المدن التي تبناها الأباطرة والأمراء بغية حماية وتطوير مناطق نفوذهم. كذلك تأثر رسل Russel[٣] بتفسير العامل السياسي في بحثه عن سكان العصور القديمة والوسيطة، وقد ركّز على العامل السياسي عادا إياه العامل الأساس في انحطاط وتدهور البنية السكانية في المدن الإسلامية الوسيطة. فهو يرى أن تضعضع البنية السكانية للمدينة يرجع إلى ما كان سائداً من صراعات سياسية مستمرة بين الخلافة الإسلامية (الدولة الإسلامية) والإمبراطورية البيزنطية.

وحقيقة الأمر فالمتفحص لآراء ابن خلدون في المقدمة يجد عدداً من القرائن والإستشهادات حول أثر العامل السياسي في ظهور المدن وفي تبدل احوالها الحضرية. وهو يصرّح بوضوح تفسيره هذا بقوله، الذي تكرّر في الجزء المخصّص للمدن والأمصار، إن المدن إنما اتخذت اساساً لغرض "التحصّن والإعتصام"[٤].

---

(1) Gideon: "The rise and fall" p. 107.

(٢) أبن خلدون: المقدمة (بيروت) ص ٢٧٢.

(٣) م.ن. ص ٢٧٥.

(٤) ينظر: الجوهري: الصحاح (مادة مدن، حضر) الفيروز آبادي: القاموس المحيط (مادة خضر، مدن) ابن منظور: لسان العرب (مادة مدن، حضر).

وهو في مجال آخر يختار عنواناً يشرح بجلاء العلاقة الوطيدة بين نشوء المدن وتأسيسها وبين العامل السياسي، إذ يذكر في بداية الفصل هذا العنوان الآتي [فصل في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها][(١)]. واختار عنواناً لفصل آخر هو[فصل في ان الحضارة في الأمصار من قبل الدول وإنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها]. فالرابط الذي قصد ذكره ابن خلدون بين تأسيس المصر - الكرسي بعمر الدولة، ما هو الّا دليل واضح على الفهم العميق لدور العامل السياسي المتمثّل بالدولة.

لا ريب في أن ابن خلدون قد انطلق في نظرته إلى موضوع قيام المدن وتدهورها من نظرته الشاملة وتفسيره المبدع لنشوء المجتمعات والدول والحضارات ورقيّها ثم انحلالها وسقوطها. وقد عبّر عن هذه الحال بصورة واضحة في العنوان الذي المذكور آنفا وهو "ان الأمصار تكون كراسي للملك ثم تخرب بخراب الدولة وانتقاضها" كيف يحدّد ذلك؟ سؤال يتبادر إلى الذهن عند قراءة ذلك النصّ، فيذكر ابن خلدون كلّ دولة لا بد من أن تمرّ في مرحلتها الأولى بمرحلة البداوة وهي مرحلة تقضي إلى ((التجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق))[(٢)]، إنها مرحلة يسودها طابع البساطة في المؤسسات الإدارية والمالية وبذلك تكون نتيجتها عدم إلزام الناس وإرهاقهم بدفع الضرائب الثقيلة؛ إذ إن الدولة في هذه المرحلة ليست بحاجة إلى هذه الإجراءات عندئذ تخف جباية الضرائب والمغارم فتقلّ نفقات الدولة ويقصر الترف ويتحجّم. ثم التفت ابن خلدون إلى الموضوع المهم وهو وضع المدينة فيوضح حالها بقوله إذا ما صار المصر الذي كان عاصمة للملك في أيام هذه الدولة المتجددة التي وصلت إلى مرحلة تناقص أحوال الترف فيها تكون المحصّلة تناقص الترف بين عموم اهالي ذلك المصر(الكرسي) فتقصر عنه مظاهر الحضارة ويؤدي ذلك إلى ان يذهب الكثير من عوائد الترف في ذلك المصر فيؤول عندئذ إلى خراب.وعند التمعّن بهذه المتغيرات الجدلية التي مرّ بها هذا المصر (الكرسي) نجدها متغيرات عامة بالنسبة إلى الدولة التي اتخذت ذلك المصر عاصمة، بمعنى ان المدينة هي الأخرى قد مرّت بالمراحل

---

(1) Bert F.Hoselitz: "The role of cities in the economic growth" in Journal of political and economic studies (1954) pp. 197-198.

(2) Russel: late Ancient and medieval population (In Transactions of the American Philosophical society at Philadelphia (New series) Vol..48 (1958) Part 3, pp.101-102.

الثلاث التي شدّد عليها ابن خلدون (البداوة، والتحضر، والتدهور).

كذلك يلوح بأن تصنيف كلارك Clark[1] السابق بوجود ثلاث مجاميع للمدن قد تأثر هو الآخر بآراء ابن خلدون في المدينة، فقد أوضح كلارك ان المجموعة الثالثة من المدن وهي المدن التي تبنّاها الأباطرة والأمراء المحليّون فإنها ترتبط مصيرياً بوجود ذلك الإمبراطور أو الأمير، وابن خلدون يقف وقفة ذكية على موضوع أوضاع الأمصار وتبدّل الأحوال السياسية فيقول: إن كل دولة لا بد من أن يكون لها وطن فإذا اتسع نفوذها السياسي تكون امصارها ومدنها تابعة لأمصار الدولة المسيطرة. وفي هذه الحال يصبح واجباً على الملك (زعيم هذه الدولة) أن يتوسط مناطق نفوذه الواسعة الجديدة فيضطر إلى ان يبعد كرسيه (عاصمته الأولى)، وعلى إثر هذا التحوّل يتوق الناس (أهالي المصر) إلى أن يلحقوا بسلطانهم فيتحوّلوا عن العاصمة الأولى إلى العاصمة (الكرسي) الجديدة وتنتهي هذه الحركة إلى انحلال حضارة الكرسي الأول وإلى اختلال أحواله التمدنية والحضرية. ولم يقف ابن خلدون موقف النظر فقط، إنما أتى على بعض الإستشهادات المؤيدة لهذا الأنموذج من المدن ففي العصر العباسي عند انتصار العباسيين على الأمويين، انتقل العباسيون من دمشق إلى بغداد فانحل دور العاصمة الأولى، وعندما عدل بنو مرين في المغرب من مدينة مراكش وتحوّلوا إلى مدينة فاس تغيرت أحوال الأولى وتدهورت بينما تطورت مدينة فاس وازدهرت، وحينما عدل السلاجقة عن اتخاذ مدينة بغداد عاصمة (كرسي) لمملكتهم وتحوّلوا إلى اصبهان إختلت أحوال المدينة الأولى وخلاصة هذا التفسير فإن هذا العالم يشير إلى ان اتخاذ الدولة كرسي الخلافة في مصر ما سيؤدي إلى الإخلال بالأحوال العمرانية والحضرية للمصر الأول (العاصمة الأولى). ودعماً لهذا التفسير أيضاً فإن ابن خلدون يبين أزدهار العمران في المصر الذي يقوم بوظيفة الكرسي للدولة وتزايد رفاهية أهله يأتي ذلك من قبل الدولة إذ إنها تعمل على جمع أموال الرعية وإنفاقها على اهالي المصر (العاصمة) فتتسع أحوالهم الإجتماعية وتزداد رخاءً وغنى، وهي بالنتيجة تمثّل الحضارة.

في الوقت الذي لا تظهر مثل هذه العوامل والمظاهر الحضارية في الأمصار

---

(1) Ibid, p. 101.

القاصية والبعيدة وان كانت أمصاراً موفورة العمران، فهي - بحسب رأيه - تبقى أمصاراً يغلب عليها طابع البداوة. والسبب في هذا يرجع إلى أن السلطان قد جاوز المصر الأول الذي صار كرسياً لدولته بينما ابتعدت الأمصار النائية. وشبّه هذه الأحوال بالنسبة إلى علاقة المدينة - العاصمة - بالمدن الأخرى تشبيهاً سياسياً إقتصادياً. فالسلطان والدولة هما سوق للعالم إذ تأتيهم الموارد والبضائع من كل صوب فترى المدن اسواقاً عامرة بما تضمّها من بضائع، وتقلّ جملة كلما ابتعد المرء عن هذه السوق[1].

وهناك عوامل سياسية أيضاً تدعم مكانة المدينة العاصمة وتمّتن من بنيتها الإجتماعية والسكانية من بينها استمرار بقائها عاصمة بعد زوال السلطان، أي المؤسس الذي أسسها. وذلك عن طريق تعاقب استقرار أفراد الأسرة الحاكمة فيها واتخاذهم لها عاصمة؛ إذ سيؤدي ذلك كلّه إلى استحكام عوامل الحضارة ومظاهر التطور في العاصمة وتزايد رخاء أهاليها.

والمعروف - في حقل دراسات المدن - أن نظرية العامل السياسي في نشوء المدن وتطورها، وهي النظرية التي خصّ عدد من علماء الإجتماع والمؤرخين الغربيين ابن خلدون بها وجعلوه رائداً لهذا التفسير، هي ليست النظرية الوحيدة التي عرضها العلماء بشأن أصل المدينة وعوامل تأسيسها ونشوئها. والواقع أن نظريات أصول المدينة قد تعدّدت بتعدّد وجهات نظر قائليها، فمنهم ولاسيما البروفسور روبرت آدمز وآخرون، يدعم تفسير الأسس الإجتماعية - الإقتصادية. ومنهم على سبيل المثال لويس ممفورد Mumford[2] الذي يركّز على عوامل الظروف الجغرافية - السياسية. ومن العلماء من أولى قدراً أكبر إلى العامل الإقتصادي كما فعل هنري بيرين Pirenne وجون جاكوب Jacob[3]. ومن العلماء من دعم تفسيره بشأن العامل الديني وجعله أساس العوامل في نشوء المدن وتطورها، فالإجتماعي فوستال كولنج قد عدّ العامل الديني الرابط الأساس الذي يربط بين الناس، وان تعبير Urb كان في الأصل يعني

---

(١) أبن خلدون: المقدمة، ص ٢٩، ٣٢.

(٢) م.ن، ص ٢٩٧.

(٣) م.ن.، ص ٢٩٢.

مكاناً مقدساً[١]. ودعم البروفسور توينبي Toynbee[٢] هذه النظرية عندما صرّح بأنه ليس هناك من مدينة دون أساس أو أصل ديني. لكن مع ذلك يبدو ان نظرية العامل السياسي ـ العسكري تعدّ من النظريات التي تستند الى نماذج وإستشهادات اكثر، ولذلك فإن وضع ابن خلدون منظّراً ورائداً لنظرية العامل السياسي ـ العسكري في أصل ونشوء المدينة العربية الإسلامية يعدّ اختياراً صحيحاً. فهل وظّف ابن خلدون معرفته التاريخية الواسعة لجعل نظريته واحدية فعلاً في العامل المحرّك والفاعل في أصل المدن؟ أم أنه كان شاملاً في نظرته ولم يهمل آثار العوامل الأخرى إن وجدت في هذا الميدان؟

بدءاً إن هذا العالم قد رأى في عدّة مجالات أن الدوافع الأساس لاتخاذ الناس المدن هو الإعتصام والتحصّن بين جدرانها خوفاً من هجوم الأعداء أو القبائل المجاورة. واختيار تعبير (الإعتصام والتحصّن) يعدّ دعماً لنظرية العامل السياسي دون شك. فالمدينة قرار تتخذها المجتمعات، ولماذا؟ لأنها ـ أي المجتمعات ـ أخذت بنظر الإعتبار ضرورة تمتع هذه المدينة أو تلك بمستلزمات محدّدة لدفع المضار عن ساكنيها، أو بما عبّر عنه ابن خلدون "بالحماية من طوارقها". وهو تفسير يقابله في العصر الحديث ما بينه آشلي Ashley بالمدينة الحصن Befestigt[٣]. وابن خلدون يشير أيضاً في مجال آخر إلى هذا الدافع في اتخاذ المدن وهو خشية السلطة وتوقعاته بشأن عدوانية القوى المجاورة وشنها الهجمات عليه، فإن هذا العامل هو العامل المحرك لاتخاذ المصر لأنه ربما سيقوم بوظيفة الملجأ "لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم"[٤]. لذلك دفع هذا التوقع السلطان إلى أن يلجأ إلى الإعتصام بذلك المصر. وابن خلدون يشرح أهمية الإعتصام بالمدينة في ظل الظروف السياسية القلقة فيقول إن [مغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة، والمصرُ يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الإمتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا

(١) م.ن.، ص ٢٩٧.

(٢) م.ن.، ص ٢٩٨.

(٣) م.ن.،ص ٢٩٣.

(4) Robert McC Adams: the evolution of Urban Society (Early Mesopotamia and pre-Hispanic Mexico (Chicago 1966).

عظيم شوكة][1]. كذلك يشير في معرض حديثه عن موقفه إزاء ما ذكره أبو عبيد البكري بشأن بناء مدينة ذات أبواب فيقول المدن [إنما اتخذت للتحصن والإعتصام.. وهذه ـ يعني ذات الأبواب وكما وصفها البكري ـ خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم][2] وذلك لأن البكري ذكر بأن ذات الأبواب تحاط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب. وفي موضوع آخر يتحدث ابن خلدون عن رغبات الإنسان وتطلعاته في العيش والسكن قائلاً:- العمران نوعان بدوياً وحضرياً، والأخير هو الذي يتمثّل بالأمصار والقرى والمدن وهي أماكن اتخذت [للاعتصام بها والتحصن بجدرانها][3].

وهناك موضوع مهم آخر له علاقة برؤية ابن خلدون بالمدينة وبارتباط وجودها ورخائها بوجود السلطان والدولة إذ يقول:- لابدّ في مسألة تمصير الأمصار واختطاط المدن من وجود الدولة والملك ثم ينتهي إلى القول بأن هذه المرحلة من الترابط لم تنته فإذا ما تمّ بناء المدينة واكتملت هيأتها كما خطّط لها من قبل مؤسسيها فإن عمرها حينئذ ووجودها يرتبطان بعمر الدولة ((فعمر الدولة حينئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمدّ الدولة طويلاً ومدّتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدّد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتّسع الخطّة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة))[4].

وقفة مناقشة

رأي ابن خلدون في العامل السياسي:

حقيقة أن تفسير ابن خلدون في أثر العامل السياسي في نشوء المدن تفسير يمكن

---

(1) Louis Mumford: The city in History (New York 1961).

(2) Pirenne, H.: Medieval cities, their origins and the revival of trade (Trans, By Frank Haisey, Princeton 1925), Jone Jacob= the economy of cities (New York 1969).

(3) Fustal de Coulanges.The Ancient city, A study on the Religion laws and Institutions of Greece and Rome (New York) p. 127, 131, 134.

(4) Toynbee, A: cities on the move (Oxford 1970) p. 153.

تطبيقه على نماذج عديدة من المدن العربية الإسلامية ولاسيما تلك المدن ـ الأمصار ـ التي عملت الإمارات الإسلامية على تأسيسها واتخاذها إما مدن قصبات أو أمصار. وهناك نماذج من هذه المدن في تاريخ التمدن العربي الإسلامي قد ارتبط وجودها واستمرارها بالدولة أو الإمارة التي أسّستها. وعلى الرغم من متانة هذه النظرية وشموليتها غير أن هناك اعتقاداً بأن العامل السياسي الذي صار المحور المركزي لنظرية ابن خلدون قد ينطبق على صنف من أصناف المدن العربية الإسلامية لا جميعها، وأقصد بذلك الصنف ما يطلق عليه اسم المدن الشخصية أو المدن المرحلية. والواقع أن ابن خلدون نفسه لم يكن قطعياً تماما بشأن تفسيره بمحدودية المدة الزمنية للمدينة التي تؤسّسها الإمارات وارتباط عمرها بعمر تلك الإمارة. إذ جعل الإمارة التي يطول أمد بقائها مدة أطول عاملاً حاسماً في استمرار بقاء مصرها (كرسيها) مدّة أطول منها أيضاً. إذن فالعامل الذي أدى هذا الدور السياسي وحده كما يتراءى لأول وهلة إنما مجموعة من العوامل. ولنأخذ على سبيل المثال الأنموذج الذي اختاره ابن خلدون ووظّفه لدعم تفسيره في ارتباط المصر بالدولة المؤسسة وهو مدينة بغداد، عاصمة العباسيين. فإن عمر بقائها قد ارتبط بعمر الخلافة العباسية، معتمداً في ذلك على ما ذكره الخطيب البغدادي[1] في كتابه تاريخ بغداد بأن حماماتها التي كانت في بداية تأسيسها كثيرة جداً لم تعد كذلك بل صارت محدودة وقليلة. فقد بلغ عدد الحمامات زمن الخليفة المأمون خمسة وستون ألف حمام. أما المدينة نفسها فقد اتسعت مساحتها لتشمل أمصاراً عدة مجاورة لها وقريبة منها بلغت الأربعين مصراً أو ضاحية ـ كما ذكر ابن خلدون ـ، وإنه اختار أيضا مدناً أخرى ليبرهن على صحة نظريته أمثال القيروان وقرطبة والمهدية والقاهرة. كلّ ذلك يعدّ صحيحاً غير أن الأكثر صحة وصواباً أن المسألة لا تتعلق بوجود الدولة أو عدمه. ففي حال بغداد مثلاً ينبغي علينا الأخذ بنظر الاعتبار أنها لم تعد تلك المدينة المدورة الصغيرة التي استند اليها ابن خلدون في تفسيره، فهي قد اتسعت لتكون غير بغداد المدورة بعد عقد أو عقدين من الزمان. فقد شهدت بغداد المدورة انحلالاً عاما في هيأتها وتضاءلت أهميتها بعد أن تحولت عنها أسواقها ومحلاتها وأكثر ساكنيها إلى الكرخ والرصافة إلى أن صارت بمرور الزمن مدينة قصر، فابن حوقل ـ في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ـ يذكر أن المساجد الجامعة في بغداد كانت آنذاك ثلاثة مساجد في

(١) ابن خلدون المقدمة، ص ٢٧٦.

(الرصافة، الكرخ، المدينة المدورة)[1] غير أن هذا الجغرافي المعاصر قد قلّل من أهمية المسجد الجامع في المدينة المدورة التي يبدو أنها أخذت تفقد عظمتها السابقة، فيذكر ابن حوقل الرصافة بعد أن عمرها المهدي بقوله:- ((وتزايد بالناس والبنيان وكثرت عمارتهم وانتقل اسم الخلافة إلى الجانب الشرقي))، وفي مجال آخر يصف ابن حقول اختلال المدينة المدورة عمرانياً واجتماعياً بقوله: ((وأعمر بقعة بها اليوم الكرخ[2]))[3]، ويؤكد المقدسي ـ الجغرافي الآخر الذي عاش ذلك العصر من القرن الرابع الهجري ـ وصف ابن حقول إذ يقول إنها: ((اختلفت وخفّ أهلها فأما المدينة فخراب والجامع فيها يعمّر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب... وأعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ))[4].

وفي عصور الدولة العباسية المتأخرة يصف الرحالتان ابن جبير وابن بطوطة المدينة المدورة فيقولان إن المدينة قد ذهب أكثر رسمها ((ولم يبق منها إلا شهير اسمها))[5]. وفضلاً عن ذلك كله فإن مدينة بغداد لم تؤول إلى الخراب النهائي عندما تحوّل كرسيّ الخلافة عنها، لمدة غير قصيرة إلى مدينة سامراء. الأحوال نفسها يمكن وجودها في تطور مدينة قرطبة في الأندلس. إذ إن أحوالها الحضرية والإجتماعية لم تواجه إنتكاسات حادّة أنهت أهميتها حينما أسّس الخليفة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٢٥هـ / ٦٣٩م مدينة خاصة به تدعى الزهراء[6] إلى الشمال الغربي من مدينة قرطبة ونقل محلّ إقامته إليها ومقرّ سلطانه، وحذت حذوه المؤسسات الإدارية والمنشآت المرتبطة بوجوده. ثم عمل على تشجيع الهجرة من قرطبة فشجع الناس والتجّار على الأنتقال من المدينة القديمة، إذ يقول ابن حوقل:- عندما بنى الناصر المدينة الجديدة ((إجتلب لها العامة بالرغبة وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الأندلس ؛ ألا من أراد

---

(1) Ashley: "The beginnings of Towns" life in Middle Ages" in QJEL (1896) P. 374.

(٢) أبن خلدون، ص ٢٧٣.

(٣) م.ن.، ص ٢٧٣.

(٤) م.ن.، ص ٢٩.

(٥) م.ن.

(٦) م.ن.، ص ٣٢.

أن يبتني داراً أو أن يتخّذ مسكناً بجوار السلطان فله من المعونة أربع مئة درهم))[١] فتسارع الناس في الإنتقال وبناء الدور. مع كل ذلك فالدلائل الحضرية المعتمدة على الروايات التاريخية تشير بأن مدينة قرطبة لم تنته تماما إنما حدث خلاف ذلك فقد انحلت أحوال الزهراء الحضرية حالما أسّس المنصور محمد بن علي بن عبد الله بن أبي عامر المعافري الحاجب مدينة قصر خاصة به سميت مدينة الزاهرة في سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م ونقل إليها الجند والدواوين والأعمال وتشجع الناس على السكنى فيها، فيذكر ابن عذاري[٢] أن الأهالي صاروا يتنافسون في النزول بمدينة الزاهرة بعد أن بنيت فيها الأسواق وكثرت خيراتها ومرافقها، وقيل إن حركة البناء والتعمير قد اتسعت فيها إلى أن اتصلت بأرباض قرطبة. وقد واجهت الزاهرة لا قرطبة المصير نفسه الذي واجهته قبلها مدينة الزهراء إذ اختلت أحوالها الحضرية من عوامل النهب والتخريب حتى قيل إن أنقاضها الإنشائية من أخشاب ومرمر وأمتعة قد بيعت في أسواق مدينة بغداد[٣]. ومع كل ما جرى للزهراء والزاهرة فقد ظلت مدينة قرطبة محتفظة بعظمتها ومكانتها.

لعله من الصواب القول بأن مؤرخنا ابن خلدون كان يقظاً من الوقوع في تناقض بخصوص شمولية نظريته إذ أفح بذكاء باستدراكاته التي لا تجعل مجالاً لظهور مثل هذا التناقض المتعلق بفكرة:- عمر المدينة المصر مرتبط بعمر الدولة. فهل يقود هذا الترابط إلى نتيجة حتمية تتلاشى معها وضعية تلك المدينة المصر ويموت موتاً نهائيا الدور السياسي للدولة أو الإمارة المؤسسة لها؟ هنا نجد ابن خلدون يستدرك قائلا: بأن هذه المدينة التي ارتبطت بالإمارة المؤسسة ستكون عند انتهاء الدور السياسي للإمارة أمام مجموعة من النتائج:- إما أن تتحول ضواحيها أو ما جاورها من بوادي أو جبال إلى مناطق جذب بالنسبة إلى الأهالي وبذلك يمتدّ عمرانها وحياتها وتحافظ على وجودها فيدوم عمرها بعد انقضاء عمر الدولة التي أسّستها، وهذا ما وقع في مدن أمثال فاس وبجاية في المغرب. فإذا لم تحظ بمثل هذه المتغيرات ولم تنمُ إلى جوارها أمصار أو ضواحٍ أخرى فإن محصلة النظرية ستكون واضحة لأن ضعف الدولة وانقراضها سيؤديان إلى خرق سياجها ـ بمعنى اضطراب حبل الأمن في المدينة ـ

(١) م.ن.، ص ٢٧٢.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن.، ص ٢٧٢.

فيصعب الحفاظ عليها، ومن ثم يتناقض عمرانها تدريجياً وتضعف بنيتها السكانية فتؤول إلى خراب. والمهم أن ابن خلدون حينما اختار النماذج من المدن التي واجهت مثل هذه النتيجة الأخيرة، وهو الخراب، وقع في تناقض بين إذ أورد ذكر مدن بغداد والقاهرة والقيروان بوصفها النماذج التي ظهرت فيها حتمية النظرية، في الوقت الذي كانت فيه هذه المدن نفسها نماذج قد اختارها بنفسه لتدعم فكرة المدن التي امتدّ بها العمر مدة أطول[١].

ومن النتائج الأخرى التي فرضها ابن خلدون على مدن الدول هذه نتيجة تفيد بأن هذه المدينة التي كانت تقوم بوظيفة كرسي الإمارة ربما سيحلّ بها سلطان أو أمير دولة أو إمارة أخرى بدلاً من الإمارة التي قد انقرضت.حينئذ فإن هذه الإمارة الجديدة باتخاذها تلك المدينة كرسيّاً لها بدلاً من تأسيس كرسي أو عاصمة جديدة لها ستعمل على بقاء تلك المدينة وإدامة عمرها مدة أطول وتحافظ على أهميتها بتجديد بناء سياجها وتنشيط حركة العمران فيها فيعم الرخاء بين سكانها. هنا أيضاً استشهد بمدينتي فاس والقاهرة بوصفهما أنموذجين لهذه الظاهرة[٢].

إذن فقد صار واضحاً أن ابن خلدون ـ على وفق ما عُرض من استشهادات تاريخية ـ قد ركّز على العامل السياسي في عملية نشوء المدن وتطوّرها ومن ثم خرابها حتى في الاستدراكات التي أوردها. غير أن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال هو هل أنه قد خصّ العامل السياسي بوصفه العامل الوحيد في نشوء جميع المدن العربية الإسلامية أم أنه قصد بذلك صنفاً معيناً من أصناف المدن؟[٣] ثم هل استثنى من نظريته في أثر العامل السياسي عدداً من المدن العربية مشدّداً على عوامل أخرى لا تمتّ بصلة إلى العامل السياسي بصلة قوية؟ يلوح لي أن ابن خلدون كان في جميع استشهاداته الحضرية السابقة يقصد صنفاً واحداً من المدن دون غيره وأعني بذلك المدن التي اتخذت وظيفة العاصمة (الكرسي) أمثال بغداد والقيروان والقاهرة وقرطبة وفاس والمهدية إذ كانت بغداد عاصمة للعباسيين خلال عدة قرون، واتخذ عقبة بن نافع القيروان سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م التي تطورت لتكون مدينة عاصمة لأفريقية ففيها ديوان

(١) ابن حوقل: صورة الأرض (بيروت)، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن ١٩٠٦) ص ١٢٠.

(٣) ابن جبير: رحلة، ص ١٧٣، ابن بطوطة، رحلة ج١، ص ١٣٩.

جميع المغرب وكان دار السلطان بها ومقرّ ولاية الوالي وإليها تجبى أموال المغرب. لذلك لا غرابة أن وصفها المقدسي بتعبير (مركز السلطان) وأسس الفاطميون القاهرة لتكون قاعدة أو مدينة عاصمة لحكمهم الذي استمر لأكثر من قرنين[١]. والفاطميون أيضاً كانوا قد استحدثوا مدينة المهدية على بعد مرحلتين من القيروان لتقوم مقام القيروان بوظيفة العاصمة. ولو تفحصنا الدوافع الأساس التي دفعت كلاً من ابي جعفر المنصور وأبي عبيد الله المهدي الى تأسيس عواصم لهم في بغداد والمهدية والقاهرة نجدها دوافع تتمحور حول العامل السياسي ـ العسكري. من هنا فإن أعمارها قد ارتبطت ـ إن صح التعبير كما عرضه ابن خلدون ـ بأعمار الإمارات والدول المؤسّسة لها.والواضح أن ابن خلدون لم يغفل التصريح بهذا المعيار إذ اختار عنواناً موافقاً لنظريته في هذا الفصل من كتابه يقول فيه: ((إن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها))[٢]. فكان أبو عبيد الله المهدي حينما صمّم على ترك مدينة رقادة، عاصمة السياسية والمذهبية في مدينة القيروان المتمثلة بثورة كتامة ضد أبي عبيد الله المهدي، ووجود خطر البربر، ثم لا نغفل طموح المهدي السياسي في أن تكون له السيادة البحرية في البحر المتوسط. كذلك فإن أبا جعفر المنصور عندما قرر البحث عن موضع مناسب لعاصمته وعثوره على الموضع المفضل قال:- ((هذا موضع معسكر صالح))[٣]. وصلاحية هذا المكان ناتجة من أنه يقع بين أنهار يصعب على العدو الوصول إليه دون اتخاذ جسر أو قنطرة، فضلاً عن أنه يقع في موقع متوسط بين البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد، وكان قريباً من البر والبحر والجبل. وقراءة أحداث توجه جوهر الصقلي إلى مصر برفقة عساكر عظيمة العدد والعدة واستقرار، في الفسطاط في المرحلة الأولى يظهر إنه واجه مشاكل إجتماعية معقدة بين جنده وأهالي الفسطاط لذلك اضطر إلى أن يختط له وجنده القاهرة وسوريا بسور

---

(١) أبن جوقل: صورة الأرض، ص ١٠٧، أبن عذاري المراكشي: البيان، لمغرب في أخبار الأندلس والمغرب (بيروت) ج٢،ص ٢٣١-٢٣٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت ٩، ج٣، ص ١٦١).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٣) م.ن، ج٣، ص ٤٧-٥٩، المقري؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، ص ٦٣، ١٢١، ١٣١، ١٤٦.

ليكون ((هو وأصحابه وأجناده بمعزل عن العامة))[1]. وعلى هذا الأساس فإن عوامل تأسيس هذه المدن كانت مرتبطة بظهور الإمارات الجديدة أو بمؤسس أراد من المدينة أن تكون مدينة عاصمة جديدة له.

فالإشارة السابقة إلى أن ابن خلدون كان يهدف من وراء ذكره آثار العامل السياسي في اختيار وتأسيس وبقاء المدن إلى المدن التي قامت بوظيفة مدن العواصم، تلك الإشارة تبين بأن هذا العالم قد اهتم أيضاً بالمدن والمراكز الحضرية التي أسّسها المسلمون ولم تتأثر أصولها بذلك العامل.وقد استطعنا تمييز بعض المدن التي أديت فيها عوامل إقتصادية واستراتيجية دوراً في نشوئها وبقائها.

أ ـ المدينة الحصن / العامل الإستراتيجي.

قبل الحديث عن موقف ابن خلدون إزاء هذا الصنف من المدن لا بد من الإستشهاد بقول ابن أبي الربيع حول آثار عوامل التحدي ولاسيما منها تصدي للأخطار العسكرية في نشوء المدن. إذ يقول:- ((ولمّا كان الشرّ يدخل على الإنسان من وجوه يأتي ذكرها جعل له ما يتحفظ به من وقوع الشرّ وما يدفعه ويداويه إذا وقع))[2]. والوجوه التي شخّصها ابن أبي ربيع هي:-

١- إما أن يكون التحدي من الإنسان نفسه وحلّه أن يسلك الطريق المحمودة وضبط النفس واستعمال العقل في كل الأمور.

٢- وإما أن يكون الخطر من أهل مدينته وحلّه الإستناد الى شرائع وسنن وإصلاح أحوالهم.

٣- وإما أن يكون من مدينة أخرى ودفع هذا الخطر يستوجب إقامة الأسوار والخنادق[3].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١٦-٢١٧، ينظر أيضاً الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٣٤، الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٤٨٦.

(٢) أبن خلدون: المقدمة، ص ٢٩٧.

(٣) د. عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية (البصرة ١٩٨٦) ص ٣٣٦-٣٧م.

وعلى ذكر الحلّ الأخير الذي اقترحه ابن أبي ربيع في إقامة الأسوار لتفادي تحديات الغزو فإن زكريا القزويني يضيف أموراً مهمة أخرى حول موضوع حيوية الإجتماع بين الناس للوقوف ضد التحديات فيقول:- ((لو اجتمعوا ـ أي الناس ـ في صحراء لتأذوا بالحرّ والبرد والمطر والريح، ولو تستّروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدّو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل فحدّثت المدن والأمصار والقرى والديار))[1]. إن هذين القولين يعبّران بجلاء عن موقف هذين العالمين المسلمين من العامل الحاسم في موضوع نشوء المدن ألا وهو تحديّات مخاطر الإعتداء.

من هنا يظهر عند استقراء موقف ابن خلدون وفهمه للعوامل المساعدة في نشوء الأصناف الأخرى من المدن الإسلامية إذ خص بالذكر منها المدن التي أطلق عليها تسمية المدن الساحلية. فابن خلدون في هذا النوع من المدن لم يؤكد على وجوب ارتباط بقائها وتطوّرها بأعمار الإمارات والدول أو بالأحوال السياسية التي شهدتها ولاسيما المدن التي لم تتّخذ عواصم لإمارة معينة أو محددة.وقد وجدنا من خلال دراسة خصائص ومزايا هذه المدن (أقصد هنا المدن الساحلية والمدن التجارية)[2] دقّة فهم ابن خلدون الحضري. ففي فصل من فصول بحثه عن المدن اختار هذا العالم عنواناً مركّزاً (في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار) وتفسير ذلك، حسبما ذكر، إن القبائل البدوية إذا تفوقت على قبائل أخرى وصارت لها السيادة والنفوذ تسعى إلى السيطرة على الأمصار بدافع عاملين أولهما:- ((الدعّة والراحة وحطّ الأثقال واستكمال ما كان ناقصاً في أمور العمران في البدو))[3]. والجدير بالذكر هنا أن هذا العامل يبرز تطوّراً جديداً في سعي القبائل إلى الإستقرار يجمع بين الجوانب الإقتصادية وهو الهدف الرئيس وبين الجوانب الحضارية الذي ينتج عن استقرار البدو في الأمصار. أما العامل الثاني فهو:- إن السلطان إنما يتّخذ المصر لخوفه من اعتداء الآخرين عليه لذلك فإنه يندفع إلى الإستقرار في المصر لدفع أخطار المنازعين

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (ط/ دار المعارف) ج٧، ص ٦١٤.

(٢) م.ن، ص ج٧، ص ٦١٧.

(٣) م.ن، ص ج٧، ص ٦١٧.

والمشاغبين[1].

وهذا العامل يوضّح البعد الإستراتيجي ـ العسكري من وراء اللجوء إلى تشييد الأمصار ولا سيما أن ابن خلدون يحدّد طبيعة هذا الملجأ ومواصفاته إذ يقول: ((ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقّة))[2]. أي أن هدف السلطان من لجوئه إلى هذا المصر فإنه في هذه الحال لن يحتاج إلى أعداد كبيرة من العساكر فالجدران والأسوار خير وقاية ضدّ تحدي الهجمات. وضمن هذه الرؤية للمدينة ـ الملجأ أو المدينة الحصن يصرح ابن خلدون في مكان آخر أن المدينة التي تتخذ للاستقرار ينبغي أن تتوفر فيها شروط الحماية [وأن يراعى فيه ـ المصر ـ دفع المضار بالحماية من طوارقها][3] فالعامل هنا إذن هو عامل الاحتماء من تحديات المخاطر العسكرية وخطر الهجمات وبناء على ذلك وجب مراعاة الشروط الإستراتيجية في هذا الملجأ إذ يقول: ((فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج وأن يكون في وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعّرة من الجبل وإما باستدارة بحر أم نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها))[4]. وهذا ما وقع فعلاً حينما فضّل أبو جعفر المنصور موقع مدينته المدورة على باقي المواقع وذلك لما يتصّف به الموقع من مواصفات إستراتيتجية ـ جغرافية.

ويعود ابن خلدون مرّة أخرى ليشدّد على المستلزمات الإستراتيجية ـ العسكرية في أصول مدن الحصون والمدن العسكرية عند تناوله بالذكر المدن التي تتّخذ على ساحل البحر، إذ ينبغي مراعاة عدة شروط:-

١- أن يكون الموضع في جبل أو بين أمة من الأمم موفورة العدد[5] بحيث يكون ذلك (صريخاً) للمدينة متى ما طرقها طارق من العدو. وهو تغير دقيق إذا ما أدركنا

(١) ابن دقماق: الأنتصار لواسطة عقد الأمصار (بيروت) ص ٣٦.

(٢) ابن أبي الربيع: سلوك الممالك في تدبير الممالك (دراسة وتحقيق ناجي التكريتي / بيروت ١٩٧٨) ١٣٧.

(٣) زكريا بن محمد القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ١٩٦٠) ص ٧.

(٤) المقدمة، ص ٢٧٣.

(٥) م.ن، ص ٢٧٣.

بعض الخلفيات التاريخية لتأسيس المدن العربية الإسلامية. ففي حال القيروان مثلاً إستشار عقبة المرافقين له عن الموضع الأفضل للمدينة فرغب بعض المقاتلين في الاستقرار في مدينة قرطاج القديمة قائلين: ((يكون أهلها مرابطين فيها، وقالوا:- لقربها من البحر ليتم الجهاد والرباط))[1]. غير أن عقبة بن نافع إعترض على هذا الاختيار قائلا: ((أخاف من ملك القسطنطينية))[2]. ثم أضاف قائلا: ((إنما اخترت هذا الموضع ـ يقصد موضع القيروان ـ لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكوا))[3].

٢- ويراعى في الموضع أن تكون مساحته عمران للقبائل أهل العصبيات[4] وهو في هذا التفسير يقصد أن تجتمع القبائل لردّ الهجوم إذا ما وقع.

٣- أن يكون الموضع وعراً يشكل مصاعب طبيعية أمام أي محاولة للهجمات المفاجئة أو لهجوم الأساطيل البحرية[5].

وعند التطبيق نرى بأن ابن خلدون يختار نماذج توفّرت فيها هذه المستلزمات الإستراتيجية ولم تتّخذ مدن عواصم أمثال مدن سبته وبجاية وبلد القل بالرغم من صغرها.

ب ـ المدن التجارية والإقتصادية:

وكما هو واضح من التسمية فإن هذا الصنف من المدن قد نشأ وتطور نتيجة توفّر عوامل لا تتعلق بالعامل السياسي أو بعامل عمر الدولة المؤسسة.

وفيما يتعلق بموقف ابن خلدون إزاء العامل الإقتصادي ودوره في نشوء المدن، فإن الإستشهادات التي عرضها في مقدمته تثبت أن هذا العالم لم يركن دائماً إلى

---

(١) م.ن، ص ٢٧٦.

(٢) م.ن.

(٣) م.ن، ص ٢٧٧.

(٤) الحميري: الروض المعطار ص ٤٨٦.

(٥) الناصري: الأستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص ٧٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان /ج٤، ص ٤٢١.

التفسير الواحدي أو الأحادي في هذا الميدان شأنه شأن بقية العناصر المكونة لفلسفته في نشوء المجتمعات والحضارات وإنه قد أعطى اهتماما إلى الجوانب الأخرى غير السياسية في دراسة المجتمع المتطور كالجوانب الجغرافية ـ والإقتصادية والدينية والمزاجية والنفسية بما في ذلك تغير العادات والتقاليد وأحوال الناس النفسية. وعلى هذا فإنه حينما يطبّق نظريته على المدينة العربية الإسلامية وعوامل نشوئها لم يهمل عاملاً من العوامل المتشابكة المختلفة. لذلك فقد حدا هذا ببعض المفكرين على وضع ابن خلدون رائداً للتفسير الإقتصادي في نشوء المجتمعات.

أرجع ابن خلدون دوافع مفهومية استقرار الناس في الأمصار إلى مقوميّن أو عاملين أساسيّين، الأول الذي وقفنا عليه آنفاً وهو الحماية من الطوارق والإعتصام بجدران المدينة للدفاع عن النفس إزاء تحدي الهجمات الخارجية، أما الثاني فهو كما نصّ عليه بقوله: ((لجلب المنافع وتسهيل المرافق))[1]. وهو تعبير يظهر بجلاء إهتماما إقتصادياً يذكرنا بالسبب الذي دفع أبو جعفر المنصور إلى تفضيل موضع مدينة بغداد، فالخليفة عند توجيهه الروّاد ليرتادوا له موضعاً ملائماً وأن يكون وسطاً رافقاً بالعامة والجند عثروا على موضع مناسب أعجب به المنصور لكنه اعترض قائلاً:- ((إنما أريد موضعاً يرتفّق الناس به..))[2]. فالمرافق التي اختارها ابن خلدون لها (وكما هو الحال بتعبير (يرتفق به الناس) مدلول إقتصادي. بمعنى أن يكون الموضع منتجا ذاتياً لكي يسدّ احتياجات الناس الأساس. وابن خلدون يشير في مجال آخر إلى المستلزمات الإقتصادية والإنتاجية، بأن يكون المصر المختار واقعاً على نهر أو متوفّر به عيون مياه عذبة. فهو قد عدّ توفّر المياه العذبة مرفقاً من المرافق الضرورية للحياة المستقرة، وجعله الأساس لتغذية المرافق الإقتصادية الأخرى ومنها:-

١- طيب المراعي لسائمة الناس.. وتوضيح ذلك بشأن الذين استقروا في هذا المصر أو غيره من الأمصار لا شك في أنهم مهتمون بتربية الحيوانات سواء أكانت الدواجن منها أم التي تستثّمر للضرع والركوب والحراثة. عندئذ ينبغي توفّر المراعي الطيبة القريبة. وقد عبّر عن فهمه الجغرافي في تعبير المراعي القريبة بشكل دقيق ومباشر لما يفرضه بُعد المراعي عن هذا المصر أو ذاك من مصاعب ومعاناة للأهالي.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٧٧.

(٢) الطبري، تاريخ ج٧، ص ٦١٥.

٢- وفرة المزارع بما يتلاءم وحاجات المجتمع الجديد[١] إلى وفرة في الأقوات والمواد الغذائية الأساس. وهنا أيضاً يشدد على أفضلية وجود المزارع القريبة. والمعروف أن الفوائد التي توفرها المزارع متنوعة فهي فضلاً عن توفيرها الأقوات اليومية للأهالي فإنها تزودهم بمواد البناء والطبخ، فالمصر الذي تتوفر فيه مزارع غنية قريبة يسهل على الأهالي الحصول على الأخشاب من الأشجار للحطب والبناء ويستثمر الحطب للوقود والإصطلاء والطبخ وبناء سقوف منازلهم.

٣- ويشير ابن خلدون إلى مرفق آخر له أهمية وبعد حضاري ألا وهو توفر شروط النقل والمواصلات[٢]. ومما له علاقة بهذا الموضوع أن هناك نظرية قائمة بنفسها لتفسير نشوء المدن وتطوّرها هي نظرية النقل والمواصلات .Transportation فيذكر ابن خلدون من المرافق الأخرى الإقتصادية للمدن أن تكون قريبة من البحر، وقد شدد على البحر دون الإشارة إلى النهر على الرغم من أن الأنهار تعدّ وسائل نقل أيضاً لكنها داخلية ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأثير الموقع الذي نشأ فيه ابن خلدون فقد كان مطّلا على البحر المتوسط. أو ربما كانت رؤية ابن خلدون أبعد من ذلك فالإتصالات عبر البحر تظهر إتصالات مع العالم الخارجي. وهو يصرّح بذلك الهدف بقوله إن وقوع المدينة على البحر من أجل ((تسهيل الحاجات القاضية من البلاد النائية))[٣]. بمعنى تسهيل وصول الواردات وتصدير ما تنتجه المدينة من إنتاجات. ومع ذلك فإنه لم يعطّ هذا العامل قدراً أكبر من العاملين السابقين:- توفّر الأقوات والمراعي والمزارع، فهو يعقّب على مسألة المواصلات قائلاً: ((إلّا أن ذلك ليس بمثابة الأول))[٤]. ويقصد به العامل الأول وهو المراعي.

فالأوجه أو المظاهر الإقتصادية الثلاثة التي شدّد عليها ابن خلدون تظهر دون شك عمق فهمه لآثار العوامل الإقتصادية في نشوء الأمصار وتطوّرها؛ ولاسيما تلك الأمصار التي لم تتخذ مدن عواصم. وفضلا عما عرضه من تفصيل دقيق للعناصر الضرورية في كل ما وجه من هذه الأوجه الثلاثة، فإن ابن خلدون يصنف حاجات

---

(١) المقدمة، ص ٢٧٦.

(٢) المقدمة، ص ٢٧٧.

(٣) م.ن، ص

(٤) م.ن، ص

الناس ورغباتهم بالنسبة إلى كل منها، إذ يعقب قائلاً :- بأنها جميعاً أوجه مهمة وأن تفضيل أحدها على الآخر نسبي ومتفاوت بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكنين في المصر. فالقاطن في هذا المصر أو ذاك يراعي الوجه الأهم الذي يعتقد بأنه يجلب الفوائد والمنافع له ولقومه.

هل شدّد ابن خلدون على الآثار البعيدة في تمييز وتصنيف الأمصار على وفق أهميتها الناتجة عن دور العامل الإقتصادي؟ وهل أدّى هذا العامل دوراً مركزياً في التطوير الحضري لمدينة دون أخرى؟ ثم هل عمل العامل الإقتصادي على إضعاف وانحلال هذه المدينة أو تلك؟ يصطلح ابن خلدون على موضوع وفرة العامل الإقتصادي وأثره في تطوير المصر حضرياً بتعبير (التفنن في الترف)[1] أو في حال أخرى (التفنن في الحضارة) إنطلاقاً من فهمه أن الحضارة مرحلة تأتي بعد مرحلة البداوة، لهذا فإن التفنن بالحضارة ـ الذي يظهر في النزعة نحو الترف والدعة والغنى والاهتمام بالصنائع التي توفّر الكماليات ـ يقصد بها ((هي التي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أواني المنزل))[2]. ففي المصر تعظم نفقات أهله وتزداد وذلك يرجع إلى التفنن في الأخذ بالمظاهر الحضارية، فإذا ما كثر أهله وكثرت آلات البناء الحضرية فيه من استخدام الحجارة والجير (القير) ومن التأنق في إدخال مظاهر التجميل المعماري باستخدام الرخام والزيج والزليّج والزجاج والصدف والفسيفساء[3]. لكن هذه الأحوال المتطوّرة في بنية المصر الحضرية ـ العمرانية تحمل نقيضها، إذ إن كثرة سكّان المصر وتطوّر أحواله والمبالغة في التفنن الحضاري ستؤدي جميعها إلى غلاء الأسعار في أسواق هذا المصر. ويرجع سبب غلاء الأسعار هذا إلى أرتفاع الضرائب والمكوس المفروضة عليها. والواقع أن ابن خلدون يرى في هذا التطوّر إنه مرتبط باحتياجات الدولة في مرحلة الترف وتعاظم احتياجاتها في استيراد الواردات وكثرة المصروفات فتضطّر إلى فرض المكوس والضرائب. ويبقى الأمر كذلك بما يقوم به التجّار وأصحاب السوق من رفع أسعار سلعهم تبعاً لذلك فتتطاير الأسعار وتتزايد

(١) المقدمة، ص ٢٩٥.

(٢) م.ن، ص ٢٨٥، ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) م.ن، ص٢٩٥.

نفقات الناس في شرائها حتى إنها [تخرج عن القصد إلى الإسراف][1] فتنفذ مكاسبهم التي يحصلون عليها، وبمرور الزمن يتحول الكثير من الناس - سكان هذا المصر - إلى الفقر والاملاق والخصاصة. وعلى وفق هذه التطورات يؤدي النقيض المقابل للترف المتزايد إلى كساد الأسواق التي كانت المدينة قبل ذلك مشهورة بنشاطها وفعاليتها، وكساد الأسواق يقود إلى ظهور عوامل الإنحلال والضعف في بنية هذه المدينة وهيأتها، كما أن انحلال أوضاع المدينة الإقتصادية سيعقبه تدهور في أحوالها الإجتماعية وفي تدهور أخلاق الأهالي إذ يسود الشر والسفسفة والتحايل في تحصيل المعاش والمكاسب والغش والفسق. وتعمل هذه النتائج مجتمعة مفعولها فتقود في نهاية المطاف إلى خراب المدينة وانقراضها، ومما يثير الفخر والإعجاب بقوة ربط المظاهر الحضرية في المدينة تلك التي خضعت إلى مظهر التفنن في الحضارة - فالأسعار والأسواق والأخلاق والتقاليد نجدها أموراً وأوجهاً مرتبطة بذلك المظهر من التفنّن.كما إنه لم يغفل الإشارة إلى مظاهر البناء والعمران فهي الأخرى ترتبط بتلك التحولات. فالمدينة التي ظهر فيها متغير التفنن في الحضارة يأخذ ساكنها بالاهتمام بإدخال ما توفر من معالم البناء الجديدة المتطورة كالزخرفة والفسيفساء واستخدام الرخام وغير ذلك، لكنها عندما تشهد تراجعاً وانحلالاً بسبب المصاعب الإقتصادية يبدأ الأهالي بترك هذا التوجه العمراني ويضعف تفكير أصحاب الصنائع بجلب المواد الإنشائية العمرانية الغالية الثمن من الحجر والرخام وغير ذلك من الأمور لكساد الأسواق، عندئذ يلجأ الصنّاع وأهالي المدينة إلى مصنع ومن مصر إلى مصر ومن دار إلى دار إلى أن تصل إلى مرحلة من هذه الحركة التقليدية فتفقد من روّنقها وجمالها وتعدو مجرد موّاد عتيقة فاقدة الجمال والرونق. وبذلك تعود الأحوال إلى عهد البداوة الأولى في البناء والعمران.لا البداوة التي يسكن الأهالي فيها الخيام والفساطيط والقباب إنما بداوة في اللجوء الى مواد اللبن والطوب بدلا من الحجارة والرخام مهملين المظاهر الجمالية، مظاهر التفنن في البناء والحضارة. وحسبما يرى ابن خلدون فمستقبل هذه المرحلة من تطوّر المدينة سيكون عودة بناء المدينة إلى الحال القروية الريفية كما هو موجود في القرى والمدائر. ويزداد التناقص في عمرانها إلى أن يصل في النهاية إلى خرابها.

وأولى ابن خلدون اهتماما ملحوظا - خلال وقوفه في ميدان الحديث عن

---

(١) م.ن، ص٢٩٦.

المتغيرات الإقتصادية في المدينة ـ بموضوع الأسعار ومدى علاقتها بأوضاع المدينة وأهاليها من الجوانب الإقتصادية والإجتماعية. وقد خصّص لهذا الميدان الحيوي فصلاً خاصّاً. ففي رأيه أن المصر المزدحم بالسكان[١] ترخص فيه أسعار الحاجات الضرورية للمعيشة ـ وهو يشخّص حاجات الناس من الضروريات كالحنطة والباقلاء والبصل والثوم... الخ، وفي مقابلها تتطاير أسعار الكماليات ـ وقد شخّص هذه الكماليات بالأدّم والفواكه والملابس والأواني والمراكب والمباني وسائر الصنائع ـ. أما إذا كان الأمر مختلفا أي في حال قلّة سكان المدينة أو عدم زحمتها فإن أسعار الضروريات من الأقوات والحبوب التي لا يستغني عنها أي بيت تزداد، فيقول ما نصّه: ((إذ إن كلّ أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته))[٢]. وسبب هذا يرجع الى الإقبال المتزايد للناس على الضروريات فإذا ما كان ((كل متّخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسدّ خلة كثيرين من أهل المصر فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شكّ فترخص أسعارها))[٣]. وابن خلدون لم يهمل الآثار المترتبة بفعل العوارض الطبيعية واحتكار الناس لهذه المواد على طبيعة أسعارها. من جانب آخر فالكماليات غير ضرورية مقارنة بالقوت والحبوب بمعنى تلك التي لا يحتاجها جميع أهالي المصر بالحال التي يحتاجون اليه المواد الغذائية الأساس. فالكماليات تكون مرغوبة عند اتساع الرخاء والعمران في هذا المصر أو ذاك؛ لذلك يتزايد الطلب والإقبال عليها فترتفع أسعارها[٤].

المهم في هذا الموضوع أن جميع هذه المتغيرات الإقتصادية كان لها آثار بعيدة على الأوضاع الحضرية للمصر، وهو يفرّق بين طبيعة هذه الآثار على الأمصار الكبيرة عن الأمصار الصغيرة القليلة العدد والسكّان.

(١) م.ن، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) م.ن، ص٢٨٨.

(٣) م.ن، ص

(٤) م.ن، ص